شهوة الحياة

اميل زولا



روايات الهلال

روائع القصص العالمي

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير طاهر الطناحي

العدد ١٧٨ * أكتوبر ١٩٦٣ * جمادى الأولى ١٣٨٣

No. 178 — October 1963

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٠ مليما ـ عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ولبنان ١٠٠ قرش سورى لبنانى ـ فى الاردن والعراق ١٠٠ فلس .

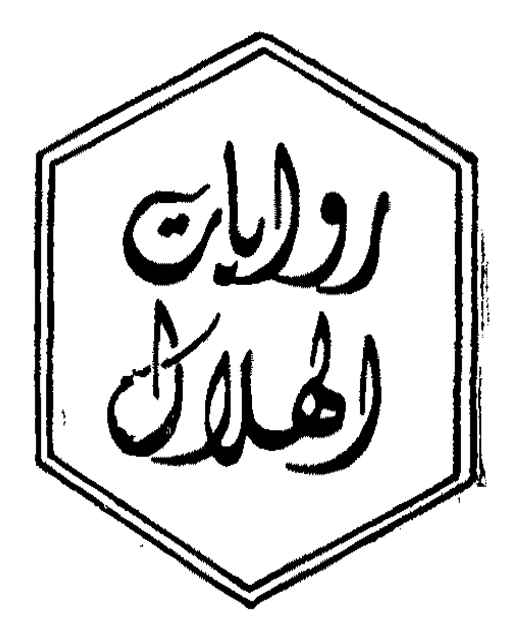
قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة ٨٥ قرشا صاغا ـ فى السودان ٨٥ قرشا سودانيا ـ فى سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى ١١٠ قروش ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ٣٠ شلنا

والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية ـ وفى الخارج بتحويل مصرفى على أحد بنوك القاهرة.

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٣٢ آنه ، ليبيا بنغازى ١٤٠ مليما وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٢٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)



مجلة شهرية لنشر القصص العالمي



بقلم

اميل زولا

مؤلف الرواية

ولد أميل زولا فى باريس سنة ١٨٤٠ لأب مهندس ايطالى الأصل، بارع الفن ، عاثر الحظ ، قليـــل المال ، وولد بأنف أفطس ، وملامح بعيدة عن الجمـــال .. ولســـان ناقص لا يحسن نطق الزاى ، فكان الصبيان فى المدرسة يتندرون عليه بسؤاله عن اسمه فيقول « ثولا» وعنـــدئذ يضجون بالضحك ! .. ويجرى هـــو خلفهم ليضربهم ، فيضربونه ضربا مبرحا !

ومات أبوه وهو طفل ، فاضطرت أمه الشجاعة أن تحترف غســـل الثياب ، والخدمة فى البيوت ، لتعوله وتيسر له الدراســـة .. بيد انه كان تلميذا متخلفا ، مشغوفا بتأليف الشعر ، فازدانت شهادته بأكثر من صفر ، منها صفر رنان فى مادة الأدب الفـــرنسى بالذات ، لأنه كان يهمل النصوص المقررة ، وينكب على قراءة الكتب الخارجية من مؤلفات معبوديه « هيجو » و « الفريد دى موسيه » ومن اليهما

ولم يكن هناك مناص من أن يهجر مقاعد الدرس ، ليبحث عن عمل .. فعطف عليه بعض ذوى المروءة وعينوه كاتب حسابات فى بعض المحلات الكبرى .. فكان يقضى النهار وبعض الليـــل فى عـــد الأرقام ليقبض مرتبا يقتات منه هو وأمه قوت الكفاف . بيد ان روحه الشاعرة ضاقت بذلك العمل ، فتحدى الجوع فى باريس ، تاركا هـــذا العمل البغيض الى ان قيض الله من توسط له عند صاحب احدى المكتبات الكبرى فعينه .. بائعا .. فكان ابلد الباعة فى البيع ، وأمهرهم فى اختلاس النظر الى باطن الكتب ، ثم يكتب تعليقات ونقدا سريعا لهـــا فى دفتر مذكراته .. الى ان ضبطه صاحب الدار ، وكاد يفصله لولا انه وجد فى تلك التعليقات براعة أدبية وألمعية فرقاه محررا للاعلانات

وفى هذه الوظيفة وجد الطريق الى معبوده : القلم .. ولو لكتابة

الاعلانات عن الكتب . ولكنها كتابة على كل حال ، وعن الكتب بالذات .. فأشرقت نفسه بالأمل ، وصار يخالس رب العمل ، ويدبج قصصا قصيرة ، نشرها فيما بعد باسم « اقاصيص الى نبتون » .. فكانت الخطوة الاولى نحو المجد السابغ ، الذى تألقت فيه درره اللامعة : « الوحش الآدمى » و « البيت المتداعى » و « نانا » و « تريزا » و « صفحة حب »

واميل زولا ، مشهور عنه انه لا يعرف فى الدنيا غير لذتين : الكتابة ، والأكل !. فكان يخرج مع زوجته كل يوم الى السوق ، لينتقى الطيور بنفسه ، ويشتريها بعد أن يتأكد من أنها سمينة ! ثم يهتم بالأصناف التى يجب أن تقدم له ، ويأكل منها بأفراط !

وفى شهر أكتوبر سنة ١٩٠٢ ، أشعل مدفأته وجلس الى مكتبه وتناول قلمه ليسهر الليل فى تدبيج المقالات والقصص .. فوجدوه فى الصباح مختنقا بغاز المدفأة ! .. وقد احرقت جثته ، ورمادها موجود الآن فى مقبرة العظماء بالحى اللاتينى بباريس



شخصيات الرواية

المسيو شانتو Monsieur Chanteau	رب أسرة شانتو
مدام شانتو Madame Chanteau	زوجة المسيو شانتو
لازار Lazare	ابن العجوز شانتو
فيرونيكا Veronique	خادمة أسرة شانتو
بولين Pauline	ابنة عم لازار
لويز Louise	صديقة أسرة شانتو
دكتور كازينوف Dr. Cazenove	طبيب أسرة شانتو
الاب هورتيير Abbé Horteur	راعى كنيسة بلدة بونفيل



الفصل الأول

ليلة عاصفة

عندما دقت الساعة الكبيرة فى غرفة المائدة ست دقات ، اختفى آخر شعاع من الامل فى قلب « شانتو » .. ومن ثم راح ينهض – فى الم – من المقعد الوثير الذى كان جالسا فيه يدفىء ساقيه المتورمتين بالنقرس أمام المصطلى المؤجج بفحم الكوك

كان فى خلال الساعتين الاخيرتين يتوقع وصول زوجته مدام « شانتو » فى أية لحظة بعد غيبة عن المنزل بلغت خمسة أسابيع . وكان المفروض أن تصحب فى عودتها من باريس ابنة « أخيه » ، الصغيرة « بولين كوينو » التى عين هو – وزوجته – وصيين عليها عقب وفاة أبيها

ومضى متثاقلا الى باب المطبخ ، فدفعه وقال للخادم «فيرونيكا» :

– انه لامر عجيب .. أخشى أن يكون قد وقع لهما حادث فى الطريق

وكانت الخادم امرأة فى نحو الخامسة والثلاثين ، غليظة التقاطيع ، لها يدان كبيرتان كأيدى الرجال ، وكانت فى تلك اللحظة مشغولة بشوى فخذة فوق النار كادت تحترق .. فلما سمعت حديث « شانتو » لم تدمدم كعادتها فى ضيق واستياء ، ولكن شحوب وجهها كان ينم عن غضب مكبوت ..

وبعد برهة صمت ، قالت بصوت حاد :

– لاشك أن السيدة قررت أن تمضى هذه الليلة فى باريس ، ولهذا ليس هناك مايدعو الى كل هذا القلق والحيرة

فقال « شانتو » بسرعة :

ـ لا .. لا .. لقد ذكرت فى برقيتها أمس أن كل شئون الصغيرة « بولين » قد تمت تســـويتها نهائيا .. ولاشك أن زوجتى بلغت مدينة « كان » فى هذا الصباح . وهناك سوف تتأخر بضع ساعات ريثما تزور شريكنا « دافوا » .. وفى الساعة الواحدة بعد الظهر ، قالت انها ستستقل القطار لكى تصـــل الى بايو فى الثانية . وفى الساعة الثالثة ستحملها مركبة « ماليفوار » الى أرومانش .. واذا افترضنا حدوث بعض التأخير هنا أو هناك ، فلابد أن تكون قد وصلت مشارف البلدة فى الرابعة أو الرابعة والنصف على الاكثر .. فان المسافة بين أرومانش وبونفيل لاتزيد على عشرة كيلومترات ..

وكانت الخادم تصغى الى حديث سيدها ، وهى تومىء برأسهـــا بين الحين والآخر ، دون أن ترفع عينيها عن فخذة الشواء .. أما هو ، فقد استطرد يقول بعد برهة من التردد :

ـ مارأيك لو أنك ذهبت الى منعطف الطريق لتنظرى ماذا حدث يا فيرونيكا ؟

فحملقت فى وجهه ، وقد ازدادت شحوبا من فرط غضبها المكبوت ، ثم قالت بحدة :

ـ ولماذا أفعل ذلك مادام السيد الصـــغير « لازار » قد ذهب يخوض فى أوحال الطريق لاستقبالهما .. ان الامر لايستحق أن أذهب أنا أيضا فى مثل هذا الجو المطير

فغمغم « شانتو » قائلا :

ـ أترين ؟ .. اننى بدأت أشعر بالقلق من أجل ابنى « لازار » كذلك .. اننى لا ارى أى أثر له .. فماذا تراه يفعل بعد ان مضى على خروجه أكثر من ساعة ؟

وعندئذ تناولت « فيرونيكا » ـ دون أن تنطق بكلمة ـ « شـــالا » أسود من نسيج الصوف كان معلقا على مشجب ، وألقت به على رأسها وكتفيها ، ثم غادرت المطبخ فى طريقها الى باب المنزل الخارجى .. الا أنها توقفت فجأة حين رأت سيدها يتبعها ، وقالت بحدة :

ـ عد للجلوس أمام المدفأة اذا أردت الا تملأ الدنيا غدا صياحا وتوجعا بسبب آلام ساقيك

وصفقت الباب وراءها .. ثم هتفت لنفسها وهى تمضى فى الجو

العاصف المطير :

ـ يا الهى .. أما لهذا العذاب من آخر ؟!

وجلس « شانتو » أمام المصطلى فى دعة وسكون .. وكان قد اعتاد على حدة لسان الخادم ونوبات غضبها .. وكانت قد التحقت بخدمته بعد زواجه بسنة واحدة ، اى عندما كانت فى الخامسة عشرة . وليس من شك أن عشرين سنة تعتبر مدة كافية لان يعتاد المرء على طباع أى شخص آخر ..

ولما غاب عن أذنيه وقع حذائها الثقيل ، نهض ـ كتلميذ مشاغب ـ واختلس الخطى الى الباب الزجاجى حيث راح يمد البصر من ورائه الى البحر .. وكان رجلا فى نحو السادسة والخمسين من عمره ، قصير الجسم ، بارز العينين ، مربد الوجه ، يعانى من نوبات مرض النقرس التى جعلته يبدو أكبر من سنه بكثير

وكان ـ وهو واقف وراء الباب الزجاجى ـ يفكر فى الصغيرة « بولين » ويتساءل عما اذا كان فى مقدورها أن تكتسب مودة « فيرونيكا » فى النهاية . وكان يشفق على الفتاة الصغيرة من ان تشعر باليتم والعزلة حين تأتى لتقيم تحت وصايته ..

ولكن ماذا كان فى وسعه أن يفعل ؟ ..

لقد كتب له أحد المحامين فى باريس خطابا يخطره فيه بأن ابن عمه « كوينو » قد توفى بعد ستة أشهر من وفاة زوجته ، تاركا ابنته الوحيدة « بولين » بلا عائل يتولى أمرها . ورغم أن « شانتو » لم يكن قد رأى ابن عمه « كوينو » كثيرا فى السنوات الاخيرة ، الا أنه كان يتبادل معه الرسائل التى تحمل المودة والتقدير بين الحين والآخر ..

وكانت أسرة « شانتو » ـ رغم كثرة أفرادها ـ متفرقة فى مختلف انحاء فرنسا . وكان والد « شانتو » قد توفى تاركا تجارة الاخشاب لابنه الذى ظل يمارسها فى مدينة « كان » حتى تركها لشريك له ، واكتفى بايراد محدود ، وانتقل مع زوجته وابنه « لازار » الى بلدة بونفيل التى قال له الاطباء عنها انها ـ من ناحية الجو ـ أفضل من غيرها بالنسبة لصحته ولمرض النقرس الذى بدأ يهاجمه

أما ابن عمه « كوينو » فقد ورث عن أبيه متجرا كبيرا للحوم

والخضروات والبقالة فى قلب سوق هالز الكبير بباريس . ولهـذا فان « بولين » لن تكون من الناحية المالية عبئا على « شـــانتو » وزوجته ، لانها سوف ترث المتجر الكبير فضلا عن الاموال المودعة فى البنك

وتحمســـت مدام « شانتو » لقبـول الوصـــاية عـلى الصغيرة « بولين » .. وأصرت على أن تمضى بمفردها ـ حتى تجنب زوجها المشقة ـ الى باريس لتعود بالفتاة بعد أن تسوى جميع شئونها ..

ولكن .. لماذا تأخرتا عن الوصول فى الموعد ؟ .. ان المخـاوف تستبد بالعجوز « شانتو » وهو ينظر الى الجو العاصف خارج الباب الزجاجى ، والى البحر الهائج الذى كانت أمواجه تتسابق فى الارتفاع والاندفاع نحو الشاطىء الصخرى ، ونحو الممرات التى تنحدر من المرتفعات الصخرية ـ التى تقوم عليها منازل البلدة ـ الى الشاطىء

وكانت هذه العواصف تحدث عادة فى شهر مارس ، فيقترب مد البحر حثيثا من الشاطىء ، ويبدو من بعيـد كأنه خط أبيض من الزبد .. أما الشاطىء نفسه ، فكان يبدو عاريا ، الا من النباتات البحرية العالقة بالصخور ، ومن الرمـــال التى تكسو ســطحه ، ومن الحفر السوداء المتناثرة فيه ، وقد خيل الى « شانتــو » ان الشاطىء بكل ماعليه يرتعد خوفا فى انتظار البحر الزاحف نحوه بكل عنف وقسوة ..

وقال « شانتو » لنفسه أخيرا :

ـ لعل الرياح قلبت المركبة فى احدى الحفر المائية ..

واحس بالرغبة فى أن يغادر الغرفة أيضا ليرى ماذا حـدث ، ففتح الباب ، وخرج الى الشرفة الصغيرة المطلة على البلدة .. ورغم المطر المتســـاقط عليه ، ورغم الرياح التى راحت تضرب وجهـه كالسياط ، فقد اعتمد بمرفقيه على حافة الشرفة .. وظل يمـد النظر الى نهاية الطريق الممتد نحو المنعطف . وكان الطريق ينحدر بين مرتفعين صخريين كأنما شق بمعول ضـخم فى غابر الزمان .. وعلى جانبى هذا الطريق المنحدر قامت مساكن البلدة التى لم تكن تزيد على ثلاثين أو خمسة وثلاثين بيتا صغيرا . وكان كل مد يندفع نحو البلدة يهدد هذه المساكن بالدمار والزوال .. اما على اليسار ،

فقد كان ثمة رقعة من شاطىء رملى رأى « شـانتو » عليها فى تلك الساعة عددا من الرجال يصيحون فى صوت منغم ، وهم يرفعون عن الماء نحو عشرة قوارب صيد ليشدوها الى الصخور حتى لايحطمها المد أو يكتسحها الجزر

وكان عدد سكان البلدة لايتجاوز المائتين ، يكتسـبون رزقهم الضئيل من البحر ، ويتعلقون بمساكنهم عـلى الصخور فى عناء ، كديدان الماء الحمقاء .. وفوق أسقف هذه المساكن المهددة بالامواج فى كل شتاء ، كانت تبدو أسقف الكنيسة وأبراجها ، ومداخن بيت آل « شانتو » وأسقفه المائلة .. وكانت تلك هى كل بلدة بونفيل ..

وسمع « شانتو » صوتا يقول :

ـ انه جو مزعج ..

وسرعان مارأى الاب « هورتيير » راعى الكنيسة ، بجسـمه البدين ، وشعره الاسود الحالك ـ رغم بلوغه الخمسين من العمر ـ وكان فى تلك اللحظة واقفا فى حديقة الكنيسة الخلفية ، القريبة من منزل آل «شانتو» ينظر الى « الخس » المنزرع فى اشفاق ، خشية ان يقضى عليه وابل المطر المنهمر ..

وقبل أن يجيب « شانتو » عليه ، رأى « فيرونيكا » مسرعة نحو البيت وهى تلوح بيديها هاتفة :

ـ ماهذا ياسيدى ؟ .. أرجوك أن تعود الى الداخل والا ازدادت آلام ساقيك ..

وأطاعها « شـانتو » على الفور ، ثم قال لها حين أقبلت الى غرفته :

ـ ألم ترى أحدا منهم ؟!

فردت قائلة بصوتها الحاد :

ـ لا .. طبعا .. لابد ان السيدة احتمت من العاصفة فى مكان ما ..

ثم أردفت قائلة :

ـ ولكننى رأيت ماهو أسوأ .. ويبـدو لى أن المد هـذه المرة سوف يدمر البلدة بأكملها .. ان بيت « كوتش » قد تهدم هـذه الليلة كما قال لى « بروان » عندما التقيت به منذ لحظات ..

وفى تلك اللحظة ، ظهر شاب طويل القامة فى نحو التاسعة عشرة من عمره ، عريض الجبين ، متألق العينين ، تتهدل خصـــلات من شعره الكستنائى حول وجهه المستطيل ..

وهتف « شانتو » متنهدا فى راحة :

ـ آه .. حسنا .. هاهوذا « لازار » .. يابنى المسكين ، لقد أغرقك المطر ..

وفيما كان الشاب يعلق معطفه الجلدى على مشـجب فى الصالة ، أردف أبوه قائلا :

ـ ماذا وراءك من أخبار يابنى ؟

فأجاب « لازار » قائلا :

ـ لاشىء ! .. لقد ذهبت حتى بلغت فيرمونت حيث احتميت بسقف احدى الحـانات ، وركزت أنظارى على الطـريق العام .. ولكننى لم أر شيئا .. ولما خشيت أن يستبد بك القلق من أجلى ، بادرت بالعودة

وكان « لازار » قد اتم دراســته الثانوية فى مدرســة الليسيه بمدينة كان ، فى شهر أغســطس السابق .. وظل منذ ذلك الحين يهيم فى جنبات البلدة بلا عمل الا محاولة تأليف بعض المقطوعــات الموسيقية مما جعل أمه تشعر بأشد القلق على مستقبله . وكانت قد غضبت منه ـ عندما ذهبت الى باريس ـ لانه رفض أن يصحبها حيث كانت تأمل أن تجد له عملا مناسبا فى العاصمة

وقال الشاب مستطردا فى الحديث :

ـ والآن .. هل ترى يا أبى أن أذهب الى أرومانش الليلة لارى ماذا حدث ؟

فهتف الوالد معترضا :

ـ لا .. لا .. ان الليل يزداد ظلامه حلكة ، والجو يزداد سوءا .. ولاشك أن والدتك لن تتركنا هكذا دون أن ترسل الينا برقية تنبئنا فيها عن سبب التأخير . آه .. أنصت .. ألا تسمع قرقعة عجلات مركبة فى الخارج ؟

وكانت « فيرونيكا » قد أسرعت وفتحت الباب ، ثم قالت :

ـ انها مركبة الدكتور « كازينوف » .. هل كنت تنتظر حضوره

الليلة ياسيدى ؟ .. ياللسماء .. ان فيها سيدتى ..

وهرع الجميع الى مدخل البيت ، وهبطوا الدرجات الصغيرة المؤدية الى الطريق ، وأسرع وراءهم كلب الحراسة النيوفونلاندى الكبير الذى كان حتى ذلك الوقت نائما فى ركن الصالة ، وراح ينبح بقوة كأنما يعلن عن سروره بعودة سيدة البيت

أما القطة الصغيرة البيضاء ، فقد وقفت فى المدخل وهى تعجب لهذه الضجة .. فلما رأت الطريق الموحل ، لوت أنفها اشمئزازا ، وعادت الى مكانها بجوار المدفأة

وفى خلال هذا كانت مدام « شانتو » ، البالغة من العمر نحو خمسين عاما ، تهبط من المركبة بخفة ونشاط فتاة فى العشرين من عمرها .. وكانت صغيرة الجسم ، نحيلة ، سوداء الشعر ، جميلة الوجه الا من أنف كبير ينم عن الطموح

وأسرع « لازار » اليها يقول لها هاتفا ، وهو يبعد الكلب الكبير عنها :

ـ ألم يقع لك حادث يا أماه ؟

ـ لا .. لا .. مطلقا

وهنا قال الوالد الذى تبع ابنه الى الخارج غير حافل بالريح أو المطر :

ـ ياللسماء .. لقد شعرنا بأشد القلق .. ماذا جرى ؟!

فأجابت زوجته قائلة :

ـ لقد سار كل شىء على غير ماينبغى .. فالطرقات ، أولا ، بلغت من السوء ما جعلنا نقطع المسافة من بايو الى أرومانش فى نحو ساعتين . وفى أرومانش أصيبت ساق أحد جوادى مركبة «ماليفوار» .. ولم يستطع أن يستبدل به غيره ، واقترح أن نبيت الليلة فى حانته . وفى النهاية تطوع الدكتور الطيب وأعارنا مركبته وسائقه « مارتن » اللطيف

وكان السائق « مارتن » عجوزا مكسور الساق ، وكان الدكتور « كازينوف » هو الذى أجرى له عملية بتر الساق انقاذا لحياته ، ثم عهد اليه بقيادة مركبته بعد أن كان فى أول أمره بحارا

وعندما ذكرت السيدة اسم « مارتن » قالت له بسرعة :

ـ أرجوك يا « مارتن » أن تساعد الطفلة الصغيرة على الهبوط من المركبة

ولم يكن أحد فى تلك اللحظة قد فكر فى الطفلة الوافدة التى كانت جالسة داخل المركبة فى هدوء .. ولكنها حين سمعت كلمات السيدة ، لم تنتظر مساعدة « مارتن » لها ، وانما وثبت بخفة من المركبة .. وكانت ترتدى معطفا اسود ، وتبدو كبيرة الجسم بالنسبة لسنوات عمرها العشر .. واسعة العينين ، ضاحكة السمات ، شاحبة الوجه . وقد راح الجميع يحملقون فيها .. وكانت « فيرونيكا » التى جاءت لترحب بسيدتها ، قد توقفت فجأة حين رات الطفلة ، وأخذت تنظر اليها فى حسد وغضب مكبوت

أما « ماتيو » الكلب الكبير ، فقد اسرع الى الطفلة ، وراح يلعق وجهها مرحبا ، وهنا قالت لها مدام « شانتو » :

ـ لاتخافى ياعزيزتى .. انه كلب وديع ..

فقالت الطفلة بصوت رقيق :

ـ اننى لست خائفة .. فأنا أحب الكلاب كثيرا

وبعد أن داعبت الكلب ضاحكة ، قالت لها « عمتها » :

ـ وماذا بعد ؟ .. ألن تقبلى أهلك يا « بولين » ؟ هذا هو عمك .. وهذا هو ابن عمك .. انه شاب مشاغب وليس طيبا مثلك ..

وقبلت الطفلة كلا منهما بدوره ، وهى تنطق بعبارة مناسبة .. وقد قالت لعمها :

ـ اننى اشكرك يا عمى كثيرا ، لانك قبلتنى فى بيتك ..

وقالت لابن عمها « لازار » :

ـ أعتقد يا ابن عمى أننا سنكون صديقين حميمين ..

ونظر « لازار » اليها وهو لايدرى أية خيوط غير منظورة كان القدر فى تلك اللحظة ينسجها ليربط بها مصيره بمصيرها

الفصل الثانى

بولين الصغيرة

تلفتت مدام « شانتو » حولها ، وقالت بمرح :

ـ ماذا نفعل هنا ؟ .. اننا فى غير حاجة لان نزداد بللا بالمطر .. هاهو قد بدأ يتساقط مرة أخرى ..

ثم استدارت تبحث بعينيها عن « فيرونيكا » فلما رأتها واقفة فى معزل عن الجميع ، قالت لها فى لهجة تنم عن التهكم :

ـ طالب يومك يافتاتى الطيبة .. كيف حالك ؟ اذا كنت لاتنوين أن تسألينى عن حالى ، فأرجوك أن تأتى بزجاجة نبيذ للعجوز « مارتن » .. اننا لم نستطع احضار حقائب السفر معنا الليلة ، ولسوف يأتى بها « ماليفوار » غدا ..

ثم قطعت حديثها فجأة ، واستدارت نحو المركبة وقالت فى جزع ولهفة :

ـ حقيبتى .. اين حقيبتى ؟ .. لشد مافزعت .. خشيت أن تكون قد سقطت فى الطريق

وكانت حقيبة جلدية سوداء متآكلة الاركان .. وقد بلغ من حرصها عليها أنها رفضت أن تعهد بحملها الى أحد .. وهكذا عادوا جميعا الى البيت حيث قالت مدام « شانتو » وهى تشعر بالدفء النسبى :

ـ آه .. ما أجمل أن يعود الانسان الى بيته فى ليلة كهذه ؟ .. لقد خيل الى أننا لن نصل أبدا ..

وبعد انصراف السائق « مارتن » .. وبعد أن التف الجميع حول نيران المصطلى ، حيث أخذت « بولين » تداعب القطة مينو برفق ، اطلت « فيرونيكا » من باب المطبخ ، وقالت :

ـ هل اقدم العشاء ؟

فرد عليها رب البيت « شانتو » قائلا :

ـ نعم .. نعم .. لقد بلغت الســـاعة السابعة الآن .. ولكن انتظرى يافتاتى حتى تغير سيدتك والصغيرة « بولين » ملابسهما ..

فقالت مدام « شانتو » :

ـ ولكننى لم أحضر حقيبة ملابس « بولين » .. ومن حسن الحظ أننا لم نبتل من الداخل .. اخلعى معطفك يا « بولين » .. ساعديها يا « فيرونيكا » ..

ولما فرغت « فيرونيكا » من مساعدة « بولين » ، عادت تقول :

ـ والآن .. هل أعد العشاء ؟

فقالت مدام « شانتو » :

ـ نعم .. أعدى الطعام ريثما نغسل أنا و « بولين » وجهينـــا وايدينا ..

وبعد العشاء ، أخذ العم « شانتو » يسرف فى الحديث عن آبائه واجداده .. ولكن الصغيرة « بولين » انصرفت عن الاســـتماع ، وعبرت الغرفة حيث وقفت وراء زجاج النافذة ، وراحت ترنو الى الافق الواسع الممتـــد أمامها الى مالانهـــاية .. وكانت منذ غادرت باريس ، وهى مشوقة أشد الشوق لرؤية البحـــر .. كانت تحلم به ، ولاتكف عن سؤال عمتها عنه طيلة السفر ، متوقعة أن تراه وراء كل مرتفع يجتازه القطار أو المركبـــة . وأخيرا رأته فى أرومانش ، وأحست بالرهبة تملأ نفسها وهى تنظر اليه ممتدا الى مالانهاية .. وظلت فى الطريق بين أرومانش وبونفيل لاتكف عن اخراج رأســـها بين الحين والآخر من نافذة المركبة لتلقى نظرة عجب ودهشـــة الى البحر الممتد بلا نهاية .. وهاهى ذى الآن واقفة فى بيت عمها ، تنظر الى البحر الممتد أمامها ، دون أن تخشى أن يغيب عن ناظرها يوما ..

وكانت أستار الليل قد بدأت تتجمع بسرعة وتنسدل من صفحة السماء المربدة حيث كانت هبات الرياح القوية تضرب الســـحب المتراكمة ، وتدفعها أمامها كأنها قطعان من الاغنام المذعورة .. ولم يعد فى مقدور « بولين » أن ترى فى ذلك الافق الممتد الا صفحة البحر الثائر الزاحف على الشواطىء .. ولم تكن صفحة البحر الا بساطا

من الزبد الابيض يكسو هذه المياه القاتمة ، الزاحفة كالموت ، على القرية

وبدت القرية نفسها كالمهجورة ، لأن سكانها جميعا كانوا قد احتموا من العاصفة بمساكنهم وراء الابواب المغلقة باحكام .. اما القوارب ، فقد تركت على الشاطىء الرملي وبدت كأنها أسماك ضخمة ميتة ..

وظل المطر المنهمر يغلف القرية فى غلالة من الضباب القاتم .. ومن ثم لم يكن فى مقدور « بولين » الا أن ترى المساكن بأسقفها والكنيسة بأبراجها ، كأنها أشباح خرجت من صفحات قصة خيالية .. !

وفيما هى واقفة تتأمل هذا المنظر الجديد على حياتها ، سمعت ابن عمها « لازار » يقول لها حين اقبل ووقف بجانبها :

ــ ان البحر أكثر اتساعا من نهر السين .. أليس كذلك ؟

وكان « لازار » لايزال مدهوشا من هذه الطفلة الصغيرة السن والحجم ، التى تتصرف وتتحدث كالكبار ..

وقالت هى دون أن تستدير برأسها نحوه :

ــ نعم ..

ــ الا تشعرين بالخوف ؟

فنظرت اليه عندئذ مدهوشة وقالت :

ــ لا .. ولماذا أخاف ؟ ان مياه البحر لن ترتفع الى هنا مهما حدث ، أليس كذلك ؟

فقال وهو يشعر بالرغبة فى مداعبتها :

ــ آه ، من يدرى ؟ .. فان مياه البحر تصل أحيانا الى قمة الكنيسة !

وعندئذ انفجرت الصغيرة « بولين » ضاحكة .. ثم أمسكت بيد ابن عمها ، وقالت بصوت ينم عن طبيعتها المرحة :

ــ أوه .. يبدو يا ابن العم أنك تعتقد أننى بلهاء ! .. والا كيف يمكن ان تبقوا فى هذا البيت عندما تصل مياه البحر الى قمة الكنيسة ؟!

وضحك « لازار » أيضا ، وأمسك « بولين » من كلتا يديها ،

وشعر كل منهما فى تلك اللحظة انه صديق حميم للآخر .. وقد اقبلت مدام « شانتو » عندئذ وابتسمت قائلة :

ـ حسنا .. حسنا .. لقد أصبحتما صديقين ، كنت أعرف أن هذا سيحدث منذ اللحظة الاولى ..

ثم استدارت نحو زوجها الذى كان منهمكا فى تناول بعض الفاكهة الدسمة « قشطة الشجر » وأردفت قائلة :

ـ ان اسرافك فى اكل هذه الفاكهة يا « شانتو » سوف يعرضك لاحدى نوبات النقرس المؤلمة ..

فغمغم الرجل بصوت ينم عن الضيق :

ـ أوه .. اننى لا أستطيع أن أعيش محروما من كل شىء ..

ثم رأى أن يغير الموضوع ، فقال وهو ينظر الى الافق من وراء زجاج النافذة :

ـ ياللسماء .. ان البحر يزحف على القرية باصرار ، ومع ذلك فلايزال على فورة المد ساعتان ..

وقال « لازار » :

ـ لو كانت الرياح تهب من الشمال ، لقلت ان بونفيل سوف تتحطم الليلة .. ولكنها لحسن الحظ تهب من الجانب الآخر ..

وبينما كانت الطفلة تصغى الى هذا الحديث فى رهبة واهتمام ، قالت مدام « شانتو » :

ـ أيا كان الامر فنحن هنا فى أمان .. أما الآخرون ، فان عليهم أن يعنوا بشئونهم .. لكل انسان متاعبه الخاصة ، وليس من المعقول ان يحمل انسان متاعب الآخرين .. مارأيك ياصغيرتى « بولين » فى قدح شاى ساخن ثم نأوى بعد ذلك الى مخادعنا ؟

وفيما كانت « فيرونيكا » تعد الشاى ، أحضر « لازار » الاوراق والقلم والمحبرة ، وجلس الى مائدة صغيرة بجوار المصباح ، وبدأ يكتب .. وعندئذ قالت له أمه :

ـ هل تشغل نفسك بالنوتة الموسيقية ، حتى فى ليلة عودتى بعد غيبة هذه الاسابيع يا « لازار » ؟ ..

فقال « لازار » وهو منهمك فى الكتابة :

ـ اننى معك هنا يا أماه .. وسوف أبقى بجانبك دائما ،

وانشغالى لن يمنعنى من الاصغاء الى حديثكم .. تحـــدثى وسوف أشاركك الحديث وأجيب على أسئلتك ..

وشرعت الاسرة تتحدث ، ولكن النوم غلب « بولين » على أمرها قبل أن تفرغ « فيرونيكا » من اعداد الشاى .. ونظر « شانتو » الى الطفلة ، فلما اطمأن الى انها مستغرقة فى النوم ، قال لزوجته بصوت خافت :

ـ هل استطعت ان تسوى الامور مع شريكى « دافوا » فى « كان » ؟

فقالت زوجته بصوت خافت أيضا :

ـ ألم أقل لك ان هذا الشريك يخدعنا ؟

وكانت الاسرة تعيش على نوعين من الدخل السنوى .. النوع الاول ، ممتلكات تدر عليها نحو ثلاثة آلاف فرنك (أى مائة وخمسين جنيها) سنويا ، والنوع الثانى نصيبها من أرباح الشركة ، وكان المفروض أن يدر عليها نحو خمسة آلاف فرنك (نحو مائتين وخمسين حنيها) سنويا .. ولكن الشريك « دافوا » اعتاد فى كل عام أن يخدع « شانتو » وأن يزعم أن الارباح نقصت كثيرا عن العام الســابق ، وهكذا كان الدخل فى الشركة يقل عاما بعد عام ..

ولما أدركت مدام « شانتو » أن زوجها ـ المصاب بداء النقرس ـ لن يستطيع أن يحقق أحلامها فى الثراء ، تحولت بكل طاقاتهـا الى ابنها « لازار » .. ومن ثم الحقته بمدرسة الليسيه ، وراحت تعاونه على استيعاب دروسه كل ليلة .. اذ كانت قبل أن تتزوج ، مربية أطفال

واذا كانت قد قبلت أن تقيم فى البلدة الصغيرة بونفيل ، فانمـا لكى تستطيع أن تدخر من ايراد الاسرة السنوى مبالغ تمكنها فيما بعد من العودة الى مدينــة « كان » بايراد لايقــل عن عشرين ألف فرنك (ألف جنيه) سنويا

ولكن الامور ظلت تنحدر من سيء الى أسوأ ، حتى اضطرت الاسرة الى الحياة فى بونفيل على ايراد لايزيد على ثلاثة آلاف فرنك .. ومن ثم باعت المركبة والجياد ، واكتفت بخادمة واحدة هى « فيرونيكا »

وهاهوذا « شانتو » يستجمع شجاعته ليقول لزوجته :

ـ اسمعى يا « ايوجين » .. انك فى الواقع مسئولة عن هــذا

كله ، لانك تشبثت بأن يكون « دافوا » هو الشريك الوحيد لنا ..
فقالت زوجته بشيء من الحدة :
ـ وماذا كان فى وسعنا أن نفعل ؟ .. هل أنا التى مرضت بداء النقرس ؟ .. أم كنت تريد أن تجعل لنا عدة شركاء يمتصون جميع الارباح ؟!
ـ ولكن « دافوا » ... ؟
ـ انه يقول ان اسعار الخشب سوف ترتفع هذا الشتاء ، وبذلك يستطيع أن يحقق لنا أرباحا غير منتظرة ...
وهنا قال « لازار » دون أن يرفع رأسه عن الورقة التى كان يكتب فيها :
ـ وحتى اذا لم يحقق لنا أرباحا ، فماذا سيحدث ؟! اننا لن نموت جوعا على كل حال .. وأنا شخصيا لا أقيم وزنا كبيرا للمال
فقالت أمه وهى تنظر الى كتاباته شذرا :
ـ طالما أنك مشغول بهذا اللغو الفارغ ، فانك لن تكون ثريا فى يوم ما .. وان أشد ما أخشاه أن ينتهى بك الامر الى التجول فى الطرقات الموحلة باحثا عن تلاميذ تعطيهم دروسا خاصة فى الموسيقى
ثم تناولت من حقيبة يدها بضعة أوراق ، وأردفت قائلة لزوجها :
ـ هذه هى تقارير « دافوا » عن الخسائر والارباح فى الشهور الثلاثة الاخيرة ، واذا استمرت الاحوال على هذا المنوال ، فسوف نغدو مدينين له فى الشهور الثلاثة التالية ..
وتناول « شانتو » الاوراق ، وألقى عليها نظرة سريعة ، ثم وضعها على المائدة أمامه . وفى تلك اللحظة ، أقبلت « فيرونيكا » تحمل الشاى ، ولما وضعته وانصرفت ، قال « لازار » :
ـ ألا نوقظ « بولين » الآن ؟ .. لاشك أنها غير مستريحة وهى نائمة هكذا
فقالت الام فى شرود :
ـ نعم .. نعم ..
ونظر الثلاثة الى الطفلة النائمة فى هدوء ، وكانت أنفاسها تتردد بانتظام ، وشعرها الذهبى يتهدل حول وجهها الشاحب وشفتيها الحمراوين . وكانت على الجملة تبدو فى تلك اللحظة كأنها زهرة فى

لوحة تمثل الطبيعة الساكنة

وعادت مدام « شانتو » بذاكرتها الى رحلتها الاخيرة الى باريس . وكانت فى الواقع متحمسة لقبول الوصاية على « بولين » ولكنها لم تحاول قط أن تعترف فيما بينها وبين نفسها ان هذا الحماس يرجع الى الثروة الكبيرة التى ورثتها الطفلة عن والدها .. !

ورأت أن الوقت قد حان لتحدث زوجها وابنها ــ بايجاز ــ عن رحلتها هذه الى باريس ، فقالت :

ــ عندما دخلت المتجر الكبير ، رأيت « بولين » جالسة فى ثوبها الاسود .. وقد قبلتها وبكيت معها ، والواقع ان المتجر كان كبيرا ورائعا وتقوم بالبيع فيه ثلاث عاملات . وكانت رئيسة العاملات فتاة كبيرة الجسم ، تدعى « أديلين » وهى التى أخطرت محامى الاسرة عن وفاة « كوينو » ابن عمك ، وحافظت على كل شىء ، حتى سويت الامور كلها ..

وبعد برهة صمت ، استطردت مدام « شانتو » قائلة :

ــ لقد تمت الاجراءات بسهولة تامة ، واجتمع ثلاثة من افراد أسرة والدتها ، وثلاثة من أفراد اسرتك .. وقرر الجميع ان تكون وصيا على الطفلة ، وأن يكون المسيو « ساكارد » المراقب ونائب الوصى

وعندئذ قال « لازار » :

ــ كفى .. فلنلذ بالصمت ، انها تستيقظ ..

وكانت « بولين » قد بدأت تطرف بعينيها ، ثم راحت تنظر الى الثلاثة بابتسامة بريئة .. ولكنها لم تلبث أن عادت الى استغراقها فى النوم

وقال « شانتو » :

ــ أتعنين « ساكارد » سمسار بورصة الاوراق المالية ؟

ــ نعم .. انه يشتغل بأعمال كثيرة ، وقد قابلته وتحدثت معه طويلا ، وأفهمته أننا لانحب أن يتدخل أحد فى شئوننا طالما أن الطفلة راضية بالحياة معنا .. وأننا لن نأخذ من ايراد ثروتها الا ثمانمائة فرنك سنويا مقابل نفقاتها . وتمت الموافقة على ذلك ، كما تم حصر التركة وبيع المتجر بالمزاد العلنى . وقد اشترينا بالثروة كلها أوراقا

مالية قيمتها مائة وخمسين ألف فرنك ، لا تقل أرباحها السنوية عن عشرة آلاف فرنك ..

ثم ربتت بيدها على الحقيبة الجلدية السوداء الموضوعة بجوارها ، وقالت :

ـ ان هذه الاوراق المالية موجودة كلها هنا ..

وقال « لازار » وهو يضع القلم أخيرا :

ـ ان الشاى سوف يبرد يا أماه .. هل أملأ الاقداح ؟

وقبل أن ينتظر اجابتها ، نهض وراح يصب الشاى فى أقداحهم الاربع ، بينما عادت امه الى الحديث قائلة :

ـ اننا لن نأخذ من أرباح هذه الاوراق المالية الا ثمانمائة فرنك سنويا ، ومن ثم سوف نضيف الباقى الى أصل الثروة حتى نضاعفها عندما تبلغ الطفلة سن الرشد ..

وقال العم بحماس :

ـ نعم .. نعم .. انها أمانة بين أيدينا ، وسوف نبذل كل جهد للعناية بها

وقال « لازار » :

ـ وهى أيضا لطيفة خفيفة الظل .. وأعتقد أننى أحببتها من الآن

ويبدو أن حركة صب الشاى فى الاقداح أيقظت « بولين » من نومها .. فاذ هى تفتح عينيها ، وتتلفت حولها ، ثم تعتدل فى جلستها وتبتسم للجميع ، ثم تشرب قدحها بهدوء ..

وكأنما خشيت مدام « شانتو » أن تعود الطفلة الى النــوم فى مكانها ، فقالت لـ « فيرونيكا » :

ـ احضرى الشمعدانات .. لقد بلغت الساعة العاشرة ، ويحسن أن نصعد الى مخادعنا والا أسفر علينا الصباح ونحن منهمكون فى الحديث ..

وفيما كانت « فيرونيكا » تعد الشموع ، سمعت مدام « شانتو » غمغمة حديث تنبعث من المطبخ ، فلما عادت بالشمعدانات الاربعة ، قالت لها سيدتها :

ـ من كان يتحدث معك فى المطبخ يا « فيرونيكا » ؟

ـ انه « بروان » .. جاء يقول ان المد اوشك ان يدمـر كل شيء فى القرية ..

وكان « شانتو » قد وافق على أن يغدو عمدة بلدة بونفيل .. وكان « بروان » الحمال يعمل فى وقت فراغه كمساعد للعمدة . فلما سمع « شانتو » ما قالته الخادم ، أمر باستدعاء « بروان » الى الغرفة ، وقال له :

ـ ماذا حدث يا «بروان » ؟

وقال الرجل وهو يدير قبعته الصوفية بين يديه :

ـ لقد تحطم بيت « كوتش » هذه المرة .. واذا استمر الحال هكذا ، فسوف يأتى الدور على بيت « كونين » .. وقد ذهبنا جميعا للمشاركة فى عملية الانقاذ ، ولكن ما الفائدة امـام جبروت البحر وقسوة الجو يا سيدى

وخيم الصمت على الجميع برهة ، ولكن زئير الرياح فى الخارج ، وهدير الامواج ، وضربات المطر على السقف كأنهـا طلقـات نارية ، جعلت الجميع يشعرون بما فى حديث « بروان » من واقع مؤلم ..

وقالت مدام « شانتو » وهى تتنهد :

ـ يبدو لى أن نهاية العالم قد دنت .. ترى أين سيذهب أفراد أسرة « كوتش » الليلة ؟

فقال « بروان » :

ـ لابد أن يفسح لهم أحد سكان القرية مكانا فى بيته .. انهم يقيمون الآن مع آل « كونين » .. ولكن يبدو لى ان اصحاب البيت إسوأ حالا من اللاجئين .. !

وكانت « بولين » قد عادت مرة اخرى الى النافذة ، تنظـر من خلال زجاجها الى ثورة الطبيعة الجامحة فى الخارج .. فلما سـمعت حديث « بروان » قالت بصوت مرتعد :

ـ يا للبؤساء المساكين ؟ ..

وقال « لازار » :

ـ لسوف أذهب معك يا « بروان » .. ولعل الفرصة لا تزال سانحة لكى نعمل شيئا ..

ولكن « بروان » هز رأسه وقال :

ـ لا يا سيد « الازار » .. انك لن تستطيع ان تفعل اكثـر مما فعلنا .. ليس فى مقدور احد الا أن يقف مكتوف اليدين ، داعيا الله أن ينتهى الامر عند هذا الحد .. لقد حضرت فقط لاخطر السيد « شانتو » بما حدث ..

وأحس « شانتو » بالضيق الشديد ، وهو يدرك أن هذا الخبر سوف يفسد عليه راحته ويؤرق نومه ، ومن ثم قال بحدة وانفعال :

ـ اننى فى الواقع لست أدرى لماذا أقمتم هذه البلدة فى هـذا المكان ؟ .. ان البحر يأكل جزءا منها كل عام ، ومع ذلك لا تفكرون فى الانتقال منها الى مكان أصلح ..

فقال « بروان » :

ـ وأين هو المكان الأصلح يا سيدى ؟ .. لقد عشنا هنا ، وليس أمامنا الا أن نستمر فى حياتنا .. ومن يدرى ، فلعل هذا المكان أصلح من غيره ..

وهنا قالت مدام « شانتو » :

ـ صـــدقت يا « بروان » .. ليس هناك مكان يمكن أن يكون مثاليا خاليا من المتاعب . وعلى كل حال ، يجب أن نأوى الآن الى مخادعنا .. وفى الصباح يمكننا أن نرى بوضوح ماذا حدث

وأحنى الرجل رأسه ، وانصرف ..

وقالت مدام « شانتو » لزوجها :

ـ يحسن أن تأوى الى فراشك يا عزيزى . .وسوف نصعد نحن الى مخادعنا فورا ..

وكان « شانتو » قد اتخذ لنفسه غرفة بالطابق الارضى من المنزل حتى لا يجهد ساقيه فى الصعود والهبوط .. وقد نهض عندما سمع كلمات زوجته ، وتقدم الى باب غرفة نومه وهو يشعر ببوادر نوبة النقرس ، مما جعله يندم على اسرافه فى تناول الاطعمة الدسمة فى وجبة العشاء ..

وعند الباب ، توقف واستدار قائلا :

ـ طابت ليلتكم جميعا .. وأرجو لك نوما هنيئا يا صغيرتى « بولين » ..

وأسرعت « بولين » اليه ، وقالت وهى تقبله :

ـ طابت ليلتك يا عمى ...

وصعد الثلاثة ـ حاملين الشمعدانات الصغيرة ـ الى الطابق الأول . وهناك توقفت الصغيرة « بولين » فى مدخله مترددة لا تدرى ماذا تفعل ، ولكن مدام « شانتو » دفعت بها فى رفق وهى تقول :

ـ ادخلى يا عزيزتى .. فان لدينا هنا غرفة اضافية ، وغرفتى تقع امامها مباشرة .. تعالى الى غرفتى لحظة لكى تريها ..

وكانت غرفة كبيرة مزينة بستائر صفراء ، ومؤثثة بما يلزم لنوم سيدة من الطبقة المتوسطة . وقد تقدمت مدام «شانتو» الى مكتب من الطراز القديم ، ورفعت غطاءه ، وفتحت أحد أدراجه الصغيرة ، وأخلته مما كان فيه .. ثم وضعت فى داخله الأسهم والسندات التى تتكون منها ثروة « بولين » وقالت :

ـ هنا ترقد ثروتك يا عزيزتى « بولين » فى امان .. ام لعلك تريدين ان تحتفظى بها فى مكان آخر ؟

فاضطرم وجه الصغيرة ، وقالت بارتباك :

ـ أوه ؟ ان هذا لا يهم كثيرا يا عمتى ..

وكان « لازار » واقفا وراءهما ، يحمل شمعدانه الى اعلا لينير لهما المكان . وقالت مدام « شانتو » وهى تغلق الدرج بالمفتاح :

ـ يمكنك أن تطمئنى الى ثروتك يا صغيرتى .. فاننا نفضل أن نموت جوعا على ان نلمس منها فرنكا واحدا .. تذكرى .. انها هنا فى الدرج الأول من الجانب الايسر . ولسوف تبقى فى مكانها هذا حتى تكبرى وتأخذيها بنفسك .. وما أظن أن القطة مينو يمكنها أن تفتح الدرج وتأكل الأوراق .. !

وضحكت « بولين » للعبارة الاخيرة ، وزال شعورها بالارتباك .. وراحت تلعب مع « لازار » الذى أخذ يقلد القطة مينو فى هريرها وفى بعض حركاتها .. ولكن مدام « شانتو » أمرته أن يكف عن هذا التهريج ، ثم قالت :

ـ لسوف أصعد الآن الى الطابق الثانى لارى هل أعدت « فيرونيكا » غرفتك كما يجب ..

فقالت « بولين » فى دهشة ، وهى تشير الى الغرفة المقابلة :

ـ اليست هذه غرفتى ؟

ـ لا .. انها غرفة اضافية للضيوف .. ان غرفتك فى الطابق الثانى ، امام غرفة « لازار » مباشرة .. تعالى معى ..

ولما صعدت « بولين » الى الغـرفة المخصصة لها ، توقفت فى مدخلها مدهوشة من اتساعها ، ومن جمال الاثاث الموضوع فيها ، وكانت نوافذها ذات الستائر المخملية تطل جميعها على البحر الممتد الى مالا نهاية ..

وبعد أن فحصت مدام « شـانتو » الغـرفة بنظراتها الثاقبة ، قالت :

ـ ان كل شيء معد هنا : المناشف ، والصابون ، والماء ، والسكر .. وغرفة « فيرونيكا » بجانبك مباشرة ، فاذا اردت شيئا منها يمكنك ان تنقرى على الجدار الفاصل بينكما ..

وهنا قال « لازار » :

ـ أو تنادى على .. فان غرفتى تقع أمام غرفتك ..

وشكرتهما « بولين » ثم قالت :

ـ طابت ليلتك يا عمتى .. طابت ليلتك يا ابن عمى ..

فقالت مدام « شانتو » :

ـ طابت ليلتك يا عزيزتى .. هل ستغيرين ملابسك بنفسك ؟

ـ نعم .. اننى اعتدت على هذا .. فانا لم اعد صـــغيرة الآن

وقبلتها مدام « شانتو » وانصرفت .. وأسرعت « بولين » الى النافذة ، وراحت تنظر من وراء زجاجها الى البحـر ، والى المطر المتســاقط بغزارة .. ولكن كل شيء بدأ لها فى الخارج قاتما مغلفا بالليل والضباب ، ومع هذا ، فقد شعرت بالرضى والسعادة وهى تسمع هدير البحر من بعيد .. وأخيرا استدارت وراحت تسير فى ضباب غرفتها ، وقد أسعدها أن تكون لها غرفة خاصة تنفرد فيها بنفسها وقتما تريد كأى شخص بالغ ..

وأخذت تخلع ثوبها الخارجى ، ونظرت الى المرآة وهى فى ملابسها الداخلية .. وفجأة شعرت بالقلق وهى تتساءل : كيف يمكن أن تنجو اذا خافت من شيء .. والباب مغلق من الداخل ؟

وأسرعت الى باب الغرفة ففتحته باضطراب ، ورأت « لازار » فى وسط غرفته المقابلة يهم بخلع ملابسه . ولما رآها ، قال مدهوشا:

ـ ماذا حدث يا « بولين » ؟! هل تريدين شيئا ؟ ..

واحمر وجهها بشدة ، وحاولت أن تكذب ، ولكنها قالت :

ـ انني أشعر بالخوف عندما أنام فى غرفة مغلقة بالمفتاح .. ولهذا لن أغلق الباب من الداخل .. واذا نقرت على الباب ، فهذا يعنى أننى أريدك أنت ، لا « فيرونيكا » ..

فتقدم « لازار » اليها ، باسطا ذراعيه ، قائلا فى مودة :

ـ لا تخافى من شىء يا صغيرتى .. طابت ليلتك ..

وتعلقت هى بعنقه فى براءة الطفولة ، وقالت :

ـ طابت ليلتك يا ابن عمى العزيز ..

وبعد خمس دقائق ، أطفأت الشمعة ، ثم آوت الى فراشها .. وما هى غير لحظات حتى استغرقت فى النوم ..



ذهبت الى زوجها وقالت له فى شبه يأس :

ـ الا يمكن ان نستريح يوما واحدا من صيحاتك هذه يا عزيزى ؟ !

وامتلأت نفسها مرة أخرى بالثـورة العنيفة على هـذا النقرس اللعين الذى كان السبب المباشر فى حياتهما هذه المملة اليائسة بتلك البلدة الحقيرة ..

وقال الرجل متوجعا :

ـ يا لفظاعة الالم .. ان هـذه النـوبة ستكون أقسى من النوبة التى سبقت . لا تقفى هكذا يا « أيوجين » كأنك تتفرجين على .. اذا لم يكن فى مقدورك أن تفعلى شـيئا .. أستدعى الدكتـور « كازينوف » ..

وانقلبت الحياة فى البيت رأسا على عقب ، وذهب « لازار » الى أرومانش ليأتى بالطبيب ، رغم يقين الاسرة من عجز الطب أمام هذه الحالة .. ذلك أن « شانتو » كان قد حاول فى السنوات الخمسة عشرة الاخيرة كل أنواع العلاج بلا جدوى .. بل لقد كانت الحالة تزداد سوءا عاما بعد عام

وأسرعت الصغيرة « بولين » الى غرفة عمهـا ، ووقفت بجـوار السرير وأخذت تراقبه فى حزن وعطف . وظلت مدام « شانتو » واقفـة تعـرب عن ضيقها من صيحات زوجهـا . ولمـا حاولت « فيرونيكا » أن تغير أغطية فراشه ، صاح بها قائلا :

ـ ابتـعدى عنى .. انك تزيدين آلامى بخشونة يديك .. انك تمسكين بى وكأنى صرة من الملابس القديمة !

وهنا قالت « فيرونيكا » فى سخط وتمرد :

ـ اذن لا تستدعينى يا سيدى .. وما دمت تعامل الناس هكذا ، فعليك أن ترعى شئونك بنفسك ..

وتقدمت « بولين » نحـو فراش المريض ، وراحت تغير الاغطيـة برفق شديد مما جعل « شانتو » يحس ببعض الراحة ، ومن ثم قال :

ـ آه .. شكرا لك يا صغيرتى .. ان اصابعك الصغيرة مليئة بالعطف والحنان .. آه .. انظرى .. ان هذا الجانب من الغطاء يثقل على قدمى وكأنه يزن خمسمائة رطل !

وظلت الصغيرة بجانبه فى الغرفة بعد انصراف زوجته والخـــادم ، كانت تحقق كل رغباته فى رفق ، وتتحمل كل مايبدر منه فى حنان وعطف وكأنها ممرضة مدربة ..

ولما حضر الطبيب أخـيرا ، قبـل جبين الطفلة ـ أو الممرضة الصغيرة ـ وكان رجلا فى نحو الرابعة والخمسين ، قضى ثلاثين عاما وهو يشتغل طبيبا بالسفن التى تجوب مختلف أنحاء العالم ، واخيرا استقر بمدينة أرومانش ، وتوطدت بينه وبين آل « شانتو » أواصر الصداقة بعد أن أصبح طبيب الاسرة

وقال الطبيب للمريض برفق :

ـ آه .. نوبة أخرى يا عزيزى « شانتو » .. حسنا .. حسنا .. لقد جئت فقط لزيارتك ، وأنت تعرف اننى لا أستطيع أن أفعل لك أكثر مما تفعله هذه الطفلة .. فما دمت قد ورثت هذا الداء وبلغت هذه السن ، فعليك أن تتحمل آلامه بصبر حتى نهاية العمر . والواقع أن العلاج الوحيد كما تعرف هو الصبر والدفء والامتناع عن الخمر والاطعمة الدسمة

ولكن الطبيب لم يلبث أن قطب جبينه قلقا ، حين رأى حبة صغيرة بيضاء تبدو على طرف أذن المريض ، مما جعله يدرك أن المرض الذى كان حادا أصبح مزمنا ..

وقال « شانتو » متوجعا :

ـ ليس من المعقول أن تتركنى أتألم على هذا النحو .. !

فحاول الدكتور « كازينوف » ان يبدو متفائلا ، وقال :

ـ حسنا .. لسوف أحاول معك بعض الاملاح القلوية .. ولكن لا تنس أنك مسئول الى حد كبير عن هذه الحالة .. انك لا تنفذ تعليماتى ، ولا تقوم بأية رياضة ، ولا تمتنع تماما عن الخمر ، وأستطيع أن أراهن أنك أكلت أمس طعاما دسما

فقال المريض معترفا :

ـ تناولت قطعة صغيرة من فاكهة قشطة الشجر

فهز الطبيب رأسه فى سخط ، ولما وضع له الدواء ، وأصدر اليه التعليمات ، قال للصغيرة « بولين » :

ـ أعطه من هذا الدواء ملعقة صغيرة كل ساعتين ، ويمكنه ان

يشرب من المياه المعـــدنية ما يشـــاء .. ولكن لابد له من الحمية الشديدة فى الاكل

وقالت مدام « شانتو » وهى تودع الطبيب عند باب المنزل :

ــ أتظن يا دكتور « كازينوف » أن فى مقدورنا منعه من تناول ما يشاء من الطعام ؟

وسمعتها « بولين » وهى تقول هذا ، ومن ثم قالت بسرعة :

ــ لا .. لا .. يا عمتى ! .. لسوف يطيعنا هذه المرة ، وأنا المسئولة عن هذا ..

ونظر الطبيب الى الصغيرة فى دهشة ، ثم قبلها مرة أخرى وهو يقول :

ــ هذه الطفلة ولدت لتساعد غيرها من الناس على احتمال آلامهم

وظل « شانتو » أسبوعا كاملا وهو يصرخ ويولول متوجعا .. وأخيرا أخذت نوبة الالم تخف تدريجيا ، مما أتاح للصغيرة « بولين » أن تسترد بعض حريتها بعد أن ظلت الاسبوع كله وهى تلازم غرفة المريض

وأخذت الطفلة بعد أن استردت حريتها ، تقضى معظم أوقاتها مع ابن عمها « لازار » فى غرفته .. وكانت غرفة واسعة ، فيها سرير صغير موضوع فى ركن قصى وراء ستار من القماش السميك ، كما كانت تحتوى على بيانو عتيق ، وأشياء كثيرة أخرى منها عدد كبير من الكتب والروايات

وكانت تلك الغرفة الواسعة تبدو فى نظر « بولين » كأنها جنة أحلام ، أو جزيرة روبنسون كروزو .. وكانت تحس أن فى مقدورها أن تعيش كل أيام حياتها فيها ، وهى تلعب مع ابن عمها « لازار » الذى شعر أن السماء قد ارسلت له اختا تصغره بتسعة اعوام ، ولكنها لطيفة وذكية وقادرة على أن تتجاوب معه فى كل شىء ..

وكان « لازار » يقضى أحيانا ساعات كاملة أمام البيانو ، عازفا بعض المقطوعات التى لحنها ، مؤكدا لـ « بولين » أنه سيغدو يوما ما أشهر أعلام الموسيقى فى العالم . وفى ذات يوم ، قال لها انه سيضع سيمفونية عالمية اسمها « جنة الارض » . وبعد أيام قليلة ، قال انه فرغ من تأليف القسم الاول من هذه السيمفونية ، وهو القسم

الذى يصور خروج آدم وحواء من الجنة ..

وأعربت «بولين» ـ أول الامر ـ عن اعجابها وسرورها بعبقريته ، ولكنها لم تلبث أن راحت تناقشه وتقول له انه قد يكون من الافضل لو نزل على رغبة والديه واستكمل دراسته بالجامعة ليصبح محاميا أو قاضيا . وكان الحزن كثيرا ما يخيم على جو الاسرة بسبب المنازعات التى تقع بين الأم وابنها .. فالام تصر على أن يذهب فى اكتوبر الى باريس ليلتحق بالجامعة ويعد نفسه لمستقبل محترم ؛ والابن يصر على أنه اذا ذهب الى باريس فلابدأن يلتحق بالكونسرفتوار ليغدو موسيقيا شهيرا . ووقفت « بولين » بجانب عمتها فى هذا النزاع ، وأكدت لها ـ بكل ثقة ـ أنها ستعرف كيف تجعل «لازار» ينزل على رغبتها . ولما سمع « لازار » هذا ، أغلق البيانو بعنف وقال :

ـ يا لك من صغيرة مغرورة !

وخاصمت « بولين » صديقها وابن عمها « لازار » ثلاثة أيام قبل أن تصالحه .. ورأى « لازار » أن يضمها الى جانبه ، بأن يعلمها العزف على البيانو . وهكذا أخذ يقضى معها كل يوم ساعات طويلة وهو يضع أصابعها الصغيرة على أوتار البيانو ، ملقنا اياها المبادىء الاولية للعزف . ولكنه صدم حين رأى أنها لا تشعر بأى حماس للموسيقى .. بل لقد أخذت هى تتندر عليه قائلة ان القطة مينو تستطيع أن تصنع مثل هذه السيمفونيات الرهيبة لو أنها أخذت تتواثب على الأوتار ! .. ومن ثم قال لها ذات يوم فى غضب شديد :

ـ لقد يئست من تعليمك العزف أيتها الحمقاء الصغيرة .. واذا شئت أن تستمرى فى هذا العبث ، فيمكنك أن تلجئى الى والدتى لتقوم بهذه المهمة

وردت « بولين » عليه قائلة :

ـ ليس هناك جدوى من هذه الموسيقى ، ولو كنت فى مكانك ، لتعلمت الطب !

فحملق فى وجهها مدهوشا ، وقال :

ـ من أوحى اليك بهذه الفكرة الخبيثة ؟ .. قولى لوالدتى اننى سوف أقتل نفسى اذا منعونى من الالتحاق بالكونسرفتوار !

ولما أقبل الصيف ، كان « شانتو » قد تحرر تماما من نوبة آلام النقرس .. ومن ثم استطاعت « بولين » أن تمضى مع « لازار » فى جولاته خارج البيت . ولشد ما كانت تشعر بالسعادة والابتهاج وهى تنطلق معه لاعبة على صخور الشاطىء ورماله ، أو حين تنعم بالسباحة معه ، بعد أن تعلمتها على يديه ، أو حين يقضيان ساعات جميلة فى تلك البقعة المنعزلة من الشاطىء ــ البعيدة عن العيون ــ التى أطلقا عليها اسم « الشاطىء الذهبى »

وانصرمت الايام بسراعة ، واخذ شهر اغسطس ينصرم بدوره دون أن يستقر « لازار » على شىء . وكان شعوره بالسعادة مع « بولين » خارج البيت ، قد أنساه مشروع سيمفونية « جنة الارض » أو لعله شعر بالسأم منها .. ومن ثم أغلق البيانو ، ولم يعد يشغل أمسياته بالكتابة الموسيقية

وفى أواخر شهر سبتمبر ، فوجئت « بولين » به وهو يقول انه قرر أن يذهب الى باريس لدراسة الطب .. ولكنه أكد لها ان دراسته للطب لن تمنعه من التردد على الكونسرفتوار ليلا ليتعلم الموسيقى . ولشد ما كانت سعادة مدام « شانتو » عندما سمعت هذا القرار .. حقا لقد كانت تتمنى أن يغدو ابنها محاميا أو قاضيا . ولكن ، لا بأس .. ان كثيرا من الاطباء استطاعوا اقتناء ثروات طائلة من هذه المهنة ، فلماذا لا يكون « لازار » واحدا منهم ؟!

وقالت الام لـ « بولين » وهى تقبلها :

ــ لابد أنك حورية هبطت علينا من السماء يا صغيرتى ؟ .. والا فكيف جعلته يتخذ هذا القرار الخطير بالنسبة لمستقبله !

وتم الاتفاق على كل شىء .. وتقرر أن يرحل « لازار » فى أول شهر اكتوبر . ولكن حدث ــ قبل موعد الرحيل بأسبوع ــ أن جلس الاثنان « لازار » و « بولين » على الشاطىء حتى غابت الشمس ، وبدأت النجوم تظهر فى صفحة السماء الواحدة بعد الاخرى .. وعندئذ قالت « بولين » ببراءة :

ــ ما أجمل هذه النجوم يا « لازار » ؟

ونظر « لازار » الى النجوم بوجه مضطرب ، وهى ترسل ضوءها الخافت فى العالم اللانهائى ، ثم قال :

ـ انك لم تعرفى الكثير عن هذه النجوم .. ان كل نجم منها شمس تدور حولها مجموعة من الكواكب . وهناك نجوم أخرى كثيرة لانراها بالعين المجردة ، انها تعد بالملايين وآلاف الملايين .. اننى أشعر بالرهبة والخوف كلما نظرت اليها .. اننى لا أحبها ..

ووضع رأسه بين يديه ، وخيم الصمت برهة غير وجيزة الا من هدير البحر .. وفجأة سمعت « بولين » صوت نحيب بجوارها ، فلما التفتت الى « لازار » رأت جسمه يهتز بالبكاء ، فقالت فى جزع :

ـ ماذا بك يا « لازار » ؟ .. هل تشعر بالمرض ؟

وظل برهة لا يجيب من فرط انخراطه فى البكاء .. ولما تمالك نفسه قليلا ، سمعته يتمتم قائلا وكأنما يحدث نفسه :

ـ أوه .. ما أبشع الموت يا الهى .. !

وعبثا حاولت « بولين » أن تنسى هـذا المنظـر بعد سـنوات وسنوات ..

ونهض « لازار » أخيرا فى اعياء ، وسارا فى طريق العودة الى البيت فى ظلام الليل ، ومع هدير أمواج البحر .. ولم يتبادلا أثناء العودة كلمة واحدة ، ومن ثم اكتفت « بولين » بالسير بجانبه فى سكون ..

وفى تلك الليلة ، وجدا فى انتظارهما زائرة جديدة.. كانت جالسة فى غرفة المائدة تتحدث مع مدام « شانتو » .. وكانت الاسرة طيلة الاسبوع السابق تنتظر حضور هذه الزائرة .. انها كانت الصبية « لويز » البالغة من العمر احدى عشرة سنة ونصف سنة تقريبا ، والتى اعتـادت ان تقضى نحو اسبوعين فى بونفيل كل عام .. وكانت أمها قد ماتت بين ذراعى مدام « شانتو » بعد أن اوصتها بالعنـاية بابنتها « لويز » .. أما والدها ، مدير أحد البنوك فى مدينة « كان » ويسمى المسيو ثيبوديير ـ فقد انتظر ستة اشهر بعد وفاة زوجته ، ثم تزوج مرة أخرى ، وأنجب من زوجته الثانية ثلاثة أبناء . ولما كان مشغولا دائما بأعماله المالية وبأعبائه العائلية ، فقد آثر أن يلحق ابنته بمدرسة داخلية ، كما كان يسره دائما أن يتخلص منها فى أيام العطلات المدرسية ، فيرسل بها الى الاقارب والاصدقاء لتقضى بينهم فترات قد يبلغ بعضها أسبوعين أو ثلاثة ..

ولما عاد « لازار » مع بولين فى تلك الليلة ، صاح والده المسيو « شانتو » قائلا فى ابتهاج :

ـ أسرع يا « لازار » .. ها هى ذى « لويز » قد حضرت ..

وتقدمت الصبية « لويز » باسمة ، وقبلت « لازار » وان كان كل منهما لا يكاد يعرف الآخر معرفة وطيدة ، لانها أمضت حياتها فى مدرسة داخلية .. بينما أمضى هو حياته ـ حتى ذلك الصيف ـ فى مدرسة الليسيه ، ولم يكونا يلتقيان الا فى هذه الفترة من العطلة السنوية ، وكان « لازار » لا يحب الاختلاط بها كثيرا لانها لم تكن بدورها تحب الالعاب الصبيانية أو التجاوب معه فى شىء ، فضلا عن محاولاتها الدائمة للفت الانظار اليها ..

وقالت مدام « شانتو » وهى تنظر الى « بولين » :

ـ حسنا يا « بولين » .. ألا تنوين تقبيل « لويز » ؟ .. انها اكبر منك بعام ونصف ، وانا احب ان تكونا صديقتين ..

ونظرت « بولين » الى « لويز » التى وقفت بجسمها النحيل وملامحها الجذابة ـ وان لم تكن متناسقة ـ وشعرها المعقوص كأنها فتاة بالغة ، وكانت « بولين » قد شحب وجهها حين رأت عناق « لويز » لـ « لازار » وتقبيلها له .. وتقدمت « لويز » وقبلت « بولين » .. فردت القبلة بشفتين مرتعدتين ـ وبشىء واضح من البرود ـ مما جعل مدام « شانتو » تقول :

ـ ماذا بك يا « بولين » .. ؟ هل تشعرين بالبرد ؟!

فاضطرم وجه الطفلة وهى تكذب قائلة :

ـ نعم .. بعض الشىء .. ان الهواء بارد ..

ولم تأكل « بولين » شيئا فى وجبة العشاء ، وانما راحت تنتقل بنظراتها من وجه عمها الى وجه « لازار » الى وجه عمتها مدام « شانتو » ثم الى وجه « لويز » .. وكانت نظراتها تتألق بالانفعال المكبوت كلما رأت الجميع يولون اهتمامهم لـ « لويز » .. ولكن الذى أتعسها وأحزنها اكثر من أى شىء ، انها رأت الكلب « ماتيو » وهو يقبل على « لويز » ويداعبها فى ابتهاج ويضع رأسه على ركبتها .. وعبثا حاولت أن تستدعيه اليها ، لان « لويز » كانت تقدم اليه قطع السكر ، الواحدة بعد الاخرى

واختفت « بولين » حين نهض الجميع عن المائدة .. ولم تلبث « فيرونيكا » ان أقبلت على الاسرة وهى تقول بلهجة المنتصر :

ــ تعالوا وانظروا ماذا تفعل « بولين » ــ التى تحسبونها مــلاكا صغيرا ــ فى المطبخ ؟!

وأسرع الجميع الى المطبخ حيث فوجئوا برؤية الصغيرة «بولين» وهى تنهال على رأس الكلب « ماتيو » بكل مافى قبضتى يديها من قوة . وكان الكلب يتحمل ضرباتها فى صمت واستسلام ، وبدون أية محاولة للدفاع عن نفسه !

وبلغ من هياج اعصاب الطفلة انهــــا راحت تضرب الهواء بيديها وقدميها عندما حملها « لازار » بين ذراعيه بعيدا عن المطبخ .. ولما وضعها فى فراشها ، ظلت حتى منتصف الليل وهى فى شبه اغماء ، وعمتها مدام « شانتو » جالسة بجوارها .. وأخيرا اســــتسلمت للنوم ..

وقالت « فيرونيكا » فى لهجة المتهكم بعد أن وجدت اخيرا عيبا فى هذه « الجوهرة » الصغيرة :

ــ انها لطيفة جدا .. أليس كذلك ؟! .. انها ملاك صغير ؟

وقالت مدام « شانتو » :

ــ لقد قيل لى فى باريس انها سريعة الغضب ، وأنها شــــديدة الغيرة .. ولكننى لم أكن أتوقع أن تصب غضبها على رأس هذا الكلب المسكين

ولكن «بولين» أسرعت فى اليوم التالى وأخذت تعانق الكلب «ماتيو»، وتمطره بالقبلات وهى تذرف الدموع .. ولما عاتبتهاعمتها على مافعلت، ألقت بنفسها بين ذراعيها وقالت باكية :

ــ اننى أحبكم بكل قلبى ، فلماذا تحبون غيرى ؟!

وظلت « بولين » تعانى الغيرة من وجود « لويز » .. لا ســــيما عندما كانت هذه تحاول دائما اجتذاب « لازار » اليها .. ولم تهدأ نفسها الا عندما اعلن « لازار » أنه قرر الرحيل الى باريس لدراسة الطب

الفصل الرابـــع

المشروع الكبير

واخذت شهور العام الدراسى تمر بطيئة متثاقلة ، وبقيت «بولين» فى البيت بعد أن كان مقدرا أن تذهب الى مدرسة داخلية فى «كان»، لان عمها « شانتو » قال انه لايستطيع احتمال نوبات مرضه دون أن تكون بجانبه .. ومن ثم تطوعت مدام « شانتو » بتعليم « بولين » فى البيت كل ماكان يمكن أن تتعلمه فى المدرسة

ومرت الايام فى يسر وسعادة ، لاسيما عندما أرســـل الشريك « دافوا » مبلغ خمسة آلاف فرنك ، قائلا انها نصيب « شانتو » فى أرباح الشركة فى ذلك العام . واعتقد الجميع أن « بولين » قــد جلبت معها الحظ الحسن ، وان ايام الفاقة والعسر قد مضت الى غير رجعة !

ولما استلمت مدام « شانتو » ارباح الاوراق المالية الخاصــــة بالصغير « بولين » صعدت معها الى الطابق الثانى ، ودخلت غــرفة نومها ، وفتحت الدرج المودعة به الاوراق المالية وقالت ل « بولين » :

ـ انظرى ياعزيزتى .. اننى أضع هذه الارباح فــوق ثروتك ، وهاهى تنمو وتزداد .. وعندما تكبرين ، سوف تجدينها مضاعفة..

وفى ذات صباح جميل من شهر أغسطس ، عاد « لازار » قبــل موعده بأسبوع ، وأعلن أنه اجتاز امتحان الفصل الاول بنجاح .. وسعدت الاسرة بهذا النبأ ، وازدادت سعادتها عندما راح «لازار» يتحدث عن دراسته الطبية دون أن يشير بحرف واحد الىالموسيقى، وكان فى حديثه يؤكد أنه كرس نفسه ليغدو طبيبا عالميا ..

وأمضت الصغيرة « بولين » شهور الصيف مع « لازار » سعيدة هانئة ، فكانا يلعبان معا على الشاطىء ، ويسبحان ، ويتجولان سيرا

على الاقدام الى الاماكن النائية ، ويقضيان الساعات الطوال فى تلك البقعة المنعزلة التى سمياها « الشاطىء الذهبى » .. وفى المساء ، كانت الاسرة تقضى فترات سعيدة فى مختلف ألعاب التسلية

ولما أزف موعد عودة « لازار » الى باريس فى أول شهر أكتوبر دهشت « بولين » حين رأته يضع جميع كتبه المدرسية مع حاجياته فى حقيبة السفر الكبيرة ، ولماسألته عن سبب أخذه هذه الكتب التى لم يفتحها يوما طيلة العطلة الصيفية ، قال :

ــ اننى سأحتاج اليها بطبيعة الحال لاستكمال دراستى ، ويجب أن أجتاز كل عقبة لكى أحقق آمالى

***

واستأنفت الاسرة حياتها العادية فى بونفيل .. وأخذت الايام تمر فى هدوء وسلام ، لا يقطع هدوءها الا النوبات التى كانت تهاجم العجوز « شانتو » وتجعل جو البيت مفعما بآهات توجعه وصيحات آلامه . وكانت البلدة قد تعرضت ثلاث مرات لمد البحر الربيعى ، وتحملت فى كل مرة بعض الخسائر فى الاراضى والمنازل . وكان الاب « هورتيير » راعى الكنيسة ، يأتى بين الحين والآخر ليلعب الشطرنج مع العجوز « شانتو » وكذلك كان الدكتور « كازينوف » يأتى كالمعتاد كل يوم سبت ليتناول طعام العشاء ، وليطمئن على حالة صديقه « شانتو »

على أن ذلك العام لم يكن مليئا بأسباب السعادة والرخاء كالعام السابق . اذ أعلن الشريك « دافوا » ان الشركة خسرت مبلغا كبيرا قد لا يتيسر تعويضه فى عدة سنوات . أما « لازار » فقد عاد من باريس ، ساخطا لاعنا الحظ ، قائلا انه رسب فى الامتحان ، وانه اصبح شديد الكراهية لدراسة الطب ، وان الاطباء جميعا لايستطيعون شفاء مريض بالنقرس مثل أبيه ، وانه قرر دراسة العلوم الكيمائية ، لان هذه العلوم كفيلة بتحويل التراب الى ذهب !

وأقبلت الفتاة « لويز » فى منتصف شهر سبتمبر لتقضى أسبوعين فى ضيافة الاسرة .. وكانت قد أصبحت ــ وهى فى الرابعة عشرة ــ غادة هيفاء تقترب من مرحلة النضج الانثوى . ولكن « لازار » لم يكن يعيرها أو يعير « بولين » اهتماما كبيرا بسبب تفكيره المتواصل

فى دراسته الجديدة ، دراسة العلوم الكيمائية التى كان واثقا أنها ستحول التراب بين يديه الى ذهب !

وفى الليلة السابقة لعودته الى باريس ، أظهر من الابتهاج والسرور بهذه العودة ما جعل « بولين » تقول له عاتبة :

ــ يبدو أنك لم تعد تحبنى ؟!

فقال لها ضاحكا :

ــ لا تكونى حمقاء ، فان على ان اشق طريقى للنجاح والثراء ، وهذا هو المهم فى الوقت الحاضر ..

ولم يسع الفتاة الا أن تبتسم

***

وفى خلال هذا العام ، بلغت « بولين » مرحلة النضج الانثوى ، ومرت هذه الفترة العصيبة بسلام تحت اشراف الدكتور «كازينوف» ورعاية مدام « شانتو » .. ولكن « بولين » بدأت تشعر بالرغبة الشديدة فى أن تعرف عن نفسها ، وعن جسدها النامى كل شىء . ولما عثرت ذات يوم على بعض كتب « لازار » الطبية التى تركها بالبيت ، اخذت تتصفحها اولا بدافع الفضول ، ثم اذ هى تنتهز كل فرصة ممكنة للانفراد بنفسها والاطلاع على هذه الكتب التى كانت تحتوى على الشىء الكثير من مبادىء التشريح ووظائف الاعضاء ، وانواع الامراض ووسائل علاجها

وأقبل « لازار » فى العطلة التالية مهتاجا متحمسا لا يكف عن الحديث عن المشروع الضخم الذى قرر أن يقوم به . ولو بذل فى هذا السبيل كل قطرة من دمه ..

قال انه تتلمذ فى باريس على يدى أستاذ عالم هو البروفسور « هيربلين » ، الذى تخصص فى دراسة النباتات البحرية وكيفية استخراج الاملاح الطبية والمعدنية منها ، واستطرد « لازار » فى حديثه الحماسى للاسرة قائلا انه وضع تصميمات مصنع كبير يمكن اقامته بالقرب من بونفيل لاستخراج النباتات البحرية الكثيرة فى تلك المنطقة ، واستخلاص الاملاح المعدنية منها وتوزيعها على مختلف شركات الادوية بأسعار ليس لها مثيل

وكانت الاسرة ــ فى أول الامر ــ تعتقد أنه غير جاد فى أحاديثه

هذه ، ولكنها فوجئت ذات يوم بحضور رجل يدعى « بوتينى » يشتغل بتقطير الخمور .. وقد راح هذا الرجل يؤكد للاسرة أن المشروع الذى يفكر فيه « لازار » من أحسن المشروعات الاقتصادية، وأنه مستعد أن يدفع نصف التكاليف التى تبلغ ستين الف فرنك اذا قبل « لازار » ان يدفع النصف الآخر .. وانه سيترك له الحق الكامل فى ادارة المصنع ، وسيكتفى هو بعمليات التوزيع .. ثم أكد لمدام « شانتو » أنها اذا كانت تريد ان يصبح ابنها « لازار » من الاثرياء فى بضع سنوات ، فان الفرصة قد سنحت لتحقيق هذا الامل وكان طبيعيا أن تنضم مدام « شانتو » الى ابنها وشريكه ، مادام الامر يتعلق بالثراء العاجل . وهكذا عقدت الاسرة اجتماعا خطيرا لبحث الموضوع من جميع جوانبه ، وفى هذا الاجتماع قالت مدام « شانتو » :

ــ ان مستقبل ابنى فى الميزان ، ونحن اذا لم نتآزر لنحقق اماله فى هذا المشروع فمن المحتمل جدا أن تؤثر هذه الصدمة فى حياته ، فيملأ اليأس نفسه ..

وقال الوالد « شانتو » :

ــ ولكن .. من أين لنا أن نقدم اليه ثلاثين ألف فرنك ؟

فردت مدام « شانتو » قائلة :

ــ لقد فكرت فى أن ألجأ الى والد « لويز » ليقرضنا هذا المبلغ ، وقد علمت أن « لويز » متوعكة الصحة ، وسوف أذهب لاحضارها، ثم أفاتح أباها بعد ذلك فى الامر ..

وزمت « بولين » شفتيها وهى جالسة فى الناحية المقابلة من المائدة ، وتلكأت « فيرونيكا » قليلا وهى تمسح سطح المائدة بعد أن رفعت أدوات الشاى ، وكأنما أرادت أن تنصت الى ما ستقوله مدام « شانتو » بعد ذلك ..

ولم تلبث السيدة أن استطردت قائلة :

ــ وكنت قد فكرت فى وسيلة أخرى ، ولكننى أخشى أن يسىء أحد فهم مقصدى .. ذلك أن المشروعات الصناعية لا تخلو من احتمالات الخسارة . ولهذا رأيت ألا ألجأ اليك ياعزيزتى « بولين » لكى تقرضى ابن عمك المبلغ ، وذلك رغم أن نصيبك من ارباح المشروع

سيكون مضمونا . والواقع أننى سوف اشعر بالحزن الشديد اذا رأيت الارباح الطائلة تذهب الى جيب المسيو « تيبوديير » ـ والد « لويز » ـ بدلا منك ..

وشحب وجه « بولين » اذ كانت تعانى فى تلك اللحظة صراعا نفسيا عنيفا بين طبيعة الحرص التى ورثتها عن أبيها التاجر ، وبين رغبتها فى ارضاء الاسرة التى رحبت بها وقبلت أن تجعلها ابنة لها . ولما رأت مدام « شانتو » ترددها ، قالت :

ـ ولكن حتى اذا قبلت أنت ياعزيزتى « بولين » فلن أقبل انا .. ان ضميرى لايسمح بتعريض جانب من ثروتك للخسارة ، وان كان هذا الاحتمال بعيدا جدا ..

وقال العجوز « شانتو » وهو يحاول تحريك ساقه متوجعا :

ـ ان مالها من حقها .. واذا حدثت أية خسارة ، فسوف نكون نحن المسئولين عنها ، لا .. لا .. الافضل ان نلجأ الى « تيبوديير » . ولاشك أنه سيرحب جدا بهذا المشروع

ولكن « بولين » انفجرت قائلة بعد أن تغلبت الرغبة فى ارضاء الاسرة على طبيعة الحرص الموروثة :

ـ لا .. لا .. ياعمتى .. دعينى أقرض المبلغ لابن عمى «لازار» .. أليس هو بمثابة أخ لى .. وهل يليق أن أرفض اقراضه بينمايقبل المسيو « تيبوديير » هذا ؟ .. أرجوك يا عمتى ان تقدمى ل « لازار » ما يريد من مال ، حتى بدون اذن منى ..

وكانت الفتاة تتحدث والدموع تتألق فى عينيها ، ويبدو أنهاشعرت بالخجل من ترددها فى تقديم القرض منذ اللحظة الاولى .. ولكن عمتها بسطت ذراعيها اليها فى حرارة وترحيب وقالت :

ـ اذن تعالى وقبلى عمتك الحبيبة ياعزيزتى .. انك فتاة رائعة ، ولسوف يسر « لازار » أن يقبل القرض مادمت تصرين على هذا ، وثقى أن هذا المبلغ سوف يتضاعف فى سنوات قليلة

ولما فرغت « بولين » من تقبيل عمتها ، قال عمها :

ـ ألا تقبليننى أنا أيضا ؟

وتبادل الجميع القبلات الممتزجة بالدموع . أما « فيرونيكا » فقد علقت على ماحدث بقولها لنفسها :

ـ ان هذه الفتاة لا تتردد فى التبرع بقميصها حتى لا تتيح الفرصة لوالد « لويز » أن يطوق أعناق الاسرة بأفضاله ..

وأقبلت « لويز » ـ بعد أسبوع ـ لقضاء فترة من عطلة الصيف بين أفراد الاسرة ، ولكن « لازار » لم يولها من الاهتمام قدر ما كان يولى ابنة عمه « بولين » التى كان يدعوها دائما باسم « شريكتى العزيزة »

وفى ذات ليلة ، قال لها وهما يفترقان عند مخادع النوم :

ـ اعتقد ياشريكتى أننى لا استطيع ان اقبلك قبلة المساء بعد أن كبرت وأصبحت فتاة ناضجة ..

ولكنها ألقت بنفسها بين ذراعيه ، وطبعت على شفتيه قبلة حارة وهى تقول :

ـ اننى لن أكبر أبدا بالنسبة لك يا « لازار » ..



الفصل الخامس

الخطبة..

قرر « لازار » ان يقيم مصنع الكيماويات البحرية فى نفس البقعة القريبة من بلدة بونفيل ، وهى البقعة المنعزلة التى كان يسميها مع « بولين » الشاطىء الذهبى .. وذلك تيمنا بهذا الاسم ..

أليس من المنتظر أن يمطرهما المصنع بالذهب ؟ !

وكان « لازار » قد أمضى أسابيع طويلة فى عمليات تحليل مختلف النباتات البحرية التى تكثر فى المنطقة ، والتى لم يكن من المنتظر أن ينضب لها معين مهما بلغ استهلاك المصنع لها .. وطبقا لهذه التحليلات ، صمم الاجهزة والادوات والآلات اللازمة لاستخراج مختلف الاملاح المعدنية وتعبئتها .. وفى الوقت الذى كانت تعد فيه هذه الاجهزة والآلات فى باريس ، كان هو وشريكه « بوتينى » يشرفان على اقامة مبنى المصنع فى المنطقة المختارة . وكان يذهب الى مكان البناء كل يوم مع « بولين » ثم يعودان فى المساء حيث يسمعان هذه العبارة التقليدية من أحد الوالدين :

ــ حسنا .. كيف الحال ، هل أنت راض يا « لازار » ؟

فيرد « لازار » قائلا :

ــ نعم .. نعم .. ولكن ما أطول الوقت الذى تستغرقه اقامة البناء !

وأقبل شهر أغسطس بأيامه الحارة ، وقرر الشاب « لازار » ذات مساء ان يقضى مع « بولين » اليوم التالى فى السباحة والترويح عن النفس .. ولما كانت الام من الطبقة المحافظة ، فلم تتصور ان تتركهما ــ على انفراد ــ ساعات طويلة وهما فى ملابس السباحة ، لذلك رأت أن تذهب معهما ..

وانطلق الجميع ـ والكلب ماتيو معهم ـ فى صباح اليوم التالى الى منطقة منعزلة على شاطىء البحر .. وهناك جلست مدام «شانتو» مستظلة بمطرفها ، بينما رقد الكلب بجوارها محاولا ان يجعل رأسه فى ظلها ..

وقال « لازار » لأمه حين رأى « بولين » تختفى وراء صخرة لتخلع ملابسها وترتدى ثوب السباحة :

ـ عجبا ؟ .. الى أين ستذهب بولين ؟ ..

فقالت أمه :

ـ انها ستخلع ملابسها طبعا .. يحسن أن تستدير بوجهك حتى لا تحرجها ، ان النظر اليها لا يليق ..

وشعر « لازار » فى تلك اللحظة أن ما بينه وبين « بولين » لم يعد مجرد عواطف أخوية ، وانما عواطف من لون آخر ..

ولما أوشكت « بولين » أن تفرغ من ارتداء ثوب السباحة ، قال لها :

ـ هلم يا « بولين » .. أم لعلك ترتدين الملابس اللائقة بسهرة رسمية .. ؟

وبرزت « بولين » من وراء الصخرة ، وهى تحاول أن تخفى خجلها واضطرابها بضحكة مغتصبة .. فقد أبرز ثوب السباحة مفاتن جسمها المستدير .. ولكن « لازار » حاول أن ينظر اليها وكأنها فى ملابسها العادية الكاملة حتى لا يزيد شعورها بالحرج ، ثم قال :

ـ هل نسبح حتى نصل الى جزيرة ببكوشيت يا « بولين » ؟

فقالت فى ابتهاج :

ـ نعم .. هلم نتسابق اليها ..

وقالت مدام « شانتو » :

ـ أرجوك يا « لازار » .. لا تتوغل بها بعيدا حتى لا أبقى هنا نهبا للقلق والخوف ..

ولكن « لازار » و « بولين » كانا قد وثبا الى الماء وانطلقا يسبحان .. وكانت جزيرة ببكوشيت عبارة عن نتوء صخرى يقع على بعد ميل من الشاطىء . وأخذ الاثنان يتسابقان اليها ، بينما تراجع الكلب ماتيو بعد أن حاول اللحاق بهما ، فلما عاد الى مكانه بجانب مدام

« شانتو » قالت :

ــ انك أعقل منهما .. ولست أدرى لماذا يحاولان المغامرة بحياتهما فى هذا البحر الهائج ..

وظل السابحان يبتعدان حتى لم يعد فى مقدور مدام « شانتو » الا أن ترى رأسيهما من بعيد ، كأنهما كرتان صغيرتان تتأرجحان على الموج . وكان الاثنان قد كفا عن التسابق ، وراحا يستمتعان بالسباحة الهادئة .. على أن « لازار » لم يلبث أن سمع صيحة خافتة من « بولين » فقال لها منزعجا :

ــ ماذا بك يا عزيزتى ؟ ..

ــ يبدو أن حمالة الثوب قد انقطعت وأنا أبسط ذراعى اليسرى الى مداها .. !

وضحك « لازار » وقال لها :

ــ لا عليك .. حاولى أن تبحثى فى جيوبك عن دبوس أو ابرة وخيط ..

ولما وصلا الى صخور الجزيرة ، صعد الشاب اليها ، وألقى بجسمه عليها التماسا للراحة .. أما « بولين » فقد بقيت غاطسة حتى عنقها خوفا من أن تصعد الى الصخر فينكشف ثديها بعد أن انزلق طرف الثوب الاعلى عنه .. ولكن « لازار » لم يفهم هذا الموقف ، ومن ثم قال :

ــ ألا تعتزمين الصعود لتستريحى ؟

فأجابت قائلة :

ــ لا .. اننى مستريحة هكذا ..

وبعد فترة وجيزة ، انطلق الاثنان فى طريق العودة .. ولكن « بولين » لم تلبث ــ وهى فى منتصف المسافة ــ أن شعرت بقواها تخور وتتداعى ،وحاولت جاهدة أن تخفى الامر عن « لازار » .. ولكنه أدرك الموقف الحرج الذى تعانيه ، فقال لها وهو يسرع نحوها :

ــ ماذا دهاك ؟ .. هل تريدين أن تنتحرى ؟ ..

ولهثت أنفاسها قائلة :

ــ اننى بخير ..

وأسرع « لازار » اليها ، وطوق خصرها بذراعه .. وحاولت هى

أن تقاومه ، ولكنها عجزت فى النهاية ، فاستسلمت لذراعه التى ضمت جسدها الى جسده بقوه ، ووصل الاثنان الى الشاطىء على هـذا النحو ..

وقالت مدام « شـانتو » حين رأت « بولين » تسقط على رمال الشاطىء فى اغماء :

ـ ياللسماء ؟ .. أكان ضروريا أن تتوغلا فى البـحر كل هذه المسافة ؟ !

وبادر « لازار » الى « بولين » ـ شبه العارية ـ واحتضنها بقوة، وراح يبذل جهده لكى تفيق من اغمائها .. وأخيرا فتحت عينيها ، ورأت وجه « لازار » الملىء بالقلق والخوف ، فانفجرت باكية .. وتعلقت به ، وراحت تمطر وجهه بالقبلات .. وكأنما تركت العنان لنفسها لكى تعبر عن مشاعر حبها المكبوتة ..

وقالت له وهى تلهث :

ـ آه .. ما أطيبك يا « لازار » .. وما أشد حبى لك ..

وفوجىء الشاب بقوة عناقها له ، وحرارة قبلاتهـا على وجهـه وشفتيه .. ولكنه لم يلبث أن ابتسم وراح يهدىء من ثورة عواطفها

وعاد الجميع الى البيت فى سكون واعياء .. وكانت مدام «شانتو» تقول لنفسها وهى تسير بين الشاب والفتاة :

ـ لقد آن أن نتخذ قرارا بشأن زواجهما ..

***

ولكن الاحـداث السريعة التى توالت بعـد ذلك ، جعلت مدام « شانتو » تفكر فى تنفيذ هـذا القرار فى أسرع وقت .. ذلك أن المصنع تجاوز فى نفقات انشائه وتزويده بالمعدات اللازمة المبلغ المعتمد له . وقد تبين أخيرا أن عمليات الانتاج لا يمكن البدء فيها الا اذا وضعت تصميمات جديدة لبعض الآلات ، ورفض « بوتينى » باصرار أن يدفع شيئا .. ورفض « لازار » باصرار أن يلجأ مرة أخرى الى ثروة « بولين » .. ولكن والدته قالت له انه اذا ترك الامر على هذا الحال .. فسوف يضيع مبلغ الثلاثين ألف فرنك التى أقترضتها .. ومن ثم فانه من الافضل أن ننقذ هذا المبلغ بمبلغ آخر

وأردفت مدام « شانتو » قائلة :

ـ ولا تنس يا « لازار » أن مال « بولين » سيعتبر مالك بعد أيام قليلة ؟

فنظر الشاب اليها مدهوشا ، وقال :

ـ ماذا تعنين يا أماه ؟

ـ أعنى أن « بولين » ستغدو زوجتك فى القريب العاجل ..

وفوجىء « لازار » بهذه الكلمات ، وقال :

ـ ماذا تقولين يا أماه ؟ .. اننى أكبرها بتسعة أعوام و ...

وابتسمت الام قائلة :

ـ هل تنكر أنك تحبها ؟ !

فأحنى الشاب رأسه مرتبكا ، وقال :

ـ لا .. لست أنكر أننى أحمل لها كل حب وتقدير .. ولكن .. ماذا عن شعورها هى ؟

فغمزت الام بعينيها ، وقالت :

ـ ألم تعرف بعد حقيقة مشاعرها نحوك ؟

ـ اننى .. اننى أعرف أنها .. أنها تحبنى كأخ اكبر

ـ حسنا .. انها الآن فى غرفتها بالطابق الاعلى .. انتظر لسوف أصعد وآتى بها لترى الى أى حد سوف ترحب بزواجك منها ..

وانطلقت الام الى « بولين » فى غرفتها الخاصة .. وما كادت تفاتحها بلباقة فى موضوع زواجها من « لازار » حتى ألقت الفتاة بنفسها بين ذراعى عمتها ، واعربت لها بدموعها وقبلاتها عن مبلغ سعادتها ..

وأدرك « لازار » كل شىء عندما رأى أمه تهبط مع « بولين » الى حيث كان جالسا فى انتظارهما بغرفة المائدة .. ومن ثم قال ضاحكا للفتاة حتى يخفف خجلها :

ـ ها .. اذن سوف نغدو زوجين ..

وأطرقت « بولين » برأسها ، ولاذت بالصمت .. ولكن العجوز « شانتو » فتح عينيه وقال بعد أن سمع الكلمات الاخيرة :

ـ ما هذا الحديث عن الزواج ؟

ثم تذكر فجأة ما قالته زوجته له فى الصباح عن هذا المشروع ، ومن ثم قال متذكرا :

ـ آها .. نعم .. نعم ..
وقال « لازار » باسما :
ـ ولكننى لم أسمع بعد رأى « بولين » ؟
فقالت « بولين » وهى تمد يدها لتصافحه :
ـ اننى أكون سعيدة لو كانت هذه رغبتك ..
وقالت مدام « شانتو » :
ـ اذن اتفقنا .. والان ليقبل أحدكما الآخر ..
وتقدمت « بولين » ، وقدمت اليه وجهها ، وقبلها « لازار » قائلا :
ـ ان الامر بالنسبة لك صفقة خاسرة يا عزيزتى .. ولكن ما دامت هذه رغبتك ، فليكن ما تريدين ..



الفصل السادس

الحساب..

وتناول الجميع العشاء فى تلك الليلة فى جو من السرور والابتهاج والتفاؤل .. وكانوا يتبادلون الحديث عن مشروعات المستقبل ، وكأنما يجتمعون معا لاول مرة . ولما شرعوا فى تناول الحلوى والفاكهة، بدأوا يتحدثون عن الجوانب الجادة الخطيرة فى حياتهم ، فبدأت الام الحديث بقولها ان الزواج لا يمكن أن يتم قبل مرور عامين على الاقل، لانها تريد ان تنتظر حتى تبلغ « بولين » سن الرشد . وتصبح حرة التصرف فى ثروتها وفى حياتها . ولما حاولت « بولين » أن تعترض ، قالت الام انها لاتريد ان يتهمها أحد بالضغط على الفتاة او باستغلال وصايتها للظفر بها زوجة لابنها ، طمعا فى ثروتها .. ورغم معارضة « بولين » فانها اعجبت بأمانة « مدام شانتو » وحرصها الشديد على اتباع القواعد والاصول .. ومن ثم نهضت من مكانها وقبلتها قائلة انها لا تستطيع الا أن تطيع رغبات أم فاضلة طاهرة النفس مثلها ..

وتحدد يوم للزواج بعد عامين ، وكان فى مقدور الخطيبين أن ينتظرا هذا اليوم بصبر ورضا .. ولماذا لا يصبران وقد رأى «لازار» ان من الاجدى عليه ان يتزوج ابنة عمه بعد ان يظفر بالارباح الاولى من مصنع الكيماويات .. هذه الارباح التى ستجعله مليونيرا فى أقرب فرصة !

وأخذا الجميع عندئذ يتحدثون عن المصنع ، وعن المال اللازم للبدء فى عمليات الانتاج ، وهنا قالت « بولين » بحماسه :

ـ خذى من أموالى ما تشاءين يا عمتى .. قدمى لـ « لازار » كل ما يحتاج اليه من المال .. لقد أصبح مالى ماله الآن بطبيعة الحال ..

ولكن مدام « شانتو » احتجت قائلة :

ـ لا .. لا .. اننا لن نأخذ من مالك فرنكا واحدا أكثر مما ينبغى .. اطمئنى من هذه الناحية ، فانى افضل ان اقطع ذراعى اليمنى على ان امد يدى لآخذ شيئا من مالك بغير وجه حق ..

ثم أردفت قائلة بعد برهة صمت :

ـ ان « لازار » فى حاجة الى عشرة آلاف فرنك أخرى لاستكمال المشروع ، ولن نأخذ أكثر من هذه الآلاف العشرة ثم نترك الباقى فى مكانه .. انه مال مقدس فى نظرى ..

وقال « لازار » :

ـ اننى واثق من النجاح الكامل اذا حصلت على هذه الآلاف العشرة من الفرنكات .. لقد فرغنا من التكاليف الضخمة ، وحرام أن نخسر المشروع كله من أجل عشرة آلاف فرنك . والواقع أننى أريد أن أفرش الارض بالذهب أمام « بولين » وأن أجعلها ترتدى يوم الزواج ثوبا تحسدها عليه الملكات .. !

وازداد سرور الاسرة بحضور الدكتور « كازينوف » على غير موعد . فقد كان يفحص مريضا فى مكان قريب ، فرأى أن يعرج على بيت صديقه « شانتو» .. ولما علم بنبأ الخطبة لم يبد عليه الكثير من الاندهاش ، وكأنما كان يتوقع شيئا من هذا القبيل .. ولكنه قال حين رأى حماسة الجميع بشأن مشروع مصنع الكيماويات :

ـ ان هذا المشروع لا بأس به ، وهو قائم على فكرة جيدة .. ومن الواجب أن يبذل الانسان جهده لاخراجه الى حيز التنفيذ ..

ثم نظر الى « بولين » وأردف قائلا :

ـ ولكن لو كان المال مالى ، لفضلت عليه الاسهم والسندات ، لانها اضمن ربحا والخسارة فيها أقل احتمالا .. اننى افضل عادة الارباح القليلة المضمونة على الارباح الكثيرة المعرضة للضياع فى أية لحظة

وتوقف فجأة حين رأى ظلالا من القلق والاضطراب تطوف بوجه «بولين» .. ولما كان قد شعر بالعطف الشديد على الفتاة منذ جاءت للاقامة مع الاسرة فقد رأى الا يستطرد فى حديثه حتى لا يزيد من شعورها بالقلق .. لذلك حول مجرى الحديث الى ذكرياته عن الاماكن العجيبة التى زارها أثناء اشتغاله طبيبا بحريا ..

واخذت الشـــهور تمر تباعا .. وبدأ المصـــنع فى عمليات الانتاج ، ولكن ظهر أن تكاليف الانتاج تزيد كثيرا عن اســـعار المنتجات المماثلة المعروضة فى الاسواق .. واخذ « لازار » يعيد تصميم الآلات ، ويجرى التجارب المرة بعد الاخرى .. وفى كل مرة كان الامر يحتاج الى مزيد من آلاف الفرنكات حتى اصبح المصنع أقرب الى فوهة أتون كل همها أن تلتهم الاوراق المالية دون أن تنتج الا رمادا .. !

وظلت «بولين» تتعاون مع الاسرة فىتزويد المشروع بكل احتياجاته المالية ، وكانت مدام « شانتو » فى أول الامر لا تأخذ شيئا من أموال « بولين » الا باذن منها ، وأمام عينيها ، وكانت مثلا تقول لها :

ـ علينا يا عزيزتى ان نسدد بعض الكمبيالات .. ونحن فى حاجة الى ثلاثة آلاف فرنك .. هلم اصعدى معى لنختار الاسهم التى نبيعها

وكانت الفتاة تقول عادة :

ـ ولكن ألا يمكنك يا عمتى أن تختاريها بنفسك ؟

فترد العمة قائلة :

ـ لا يا عزيزتى .. ان المال مالك ، وأنا لا استطيع أن أفعل شيئا بغير اذن منك ..

ولكن مدام « شانتو » لم تلبث ان تخلت عن هذه العادة .. ذلك أن « لازار » صارحها ذات يوم أنه مدين بمبلغ خمسة آلاف فرنك ، ثمن انابيب نحاسية لم تصلح للاستعمال ، وأنه أخفى أمر هذا الدين عن « بولين » .. وحدث فى صباح ذلك اليوم نفسه أن الأم كانت قد قامت بزيارة لدرج الاوراق المالية مع « بولين » . ومن ثم لم تستطع أن تطلب منها القيام بزيارة أخرى فى نفس اليوم .. ولما كان الابن العزيز فى أشد الحاجة الى تسديد الدين فى ذلك اليوم والا أشهر افلاسه ، فان الام لم يسعها الا أن تقوم بزيارة درج الاوراق المالية بمفردها فى هذه المرة ..

وأقنعت مدام « شانتو » نفسها بأنها ســـوف تعيـــد هذه الآلاف الخمسة من الفرنكات الى مكانها بمجرد أن تتسلم الارباح الاولى من المصنع .. ولكن الذى حدث أنها أخذت تتردد على درج الاوراقالمالية بمفردها كلما ضاقت الامور واحتاجت الى مزيد من المال . وفى كل مرة كانت تشعر بشىء من الغضب والثورة نحو صاحبة المـــال ..

وكأنما تجد فى هذا الغضب تنفيسا عن شعورها الخفى بالذلة التى جعلتها تتسلل الى درج الاوراق المالية ، وتأخذ مالاً لا حق لها فيه !

وكان الواضح أن « بولين » لم تكن غافلة عن هذا كله .. وكثيرا ما كانت تتبادل مع عمتها نظرات لها معناها .. نظرات القلق من ناحيتها ، ونظرات السخط والتحدى من ناحية عمتها .. وكأنما هذه تقول لها : « ماذا نستطيع أن نعمل ؟ .. هل نترك الدائنين يوقعون الحجز على البيت ويطردوننا منه ! »

ومما زاد الامر سوءا انها تلقت ذات يوم من الشريك « دافوا » اخطارا يعلنها فيه بأنه افلس ، وأن الديون التى على الشركة سوف تستهلكها .. ورغم أن الاسرة كانت تتوقع هذه الكارثة الا أنها شعرت بفداحتها بعد أن فقدت كل أمل فى الحصول على دخل سنوى آخر فوق الثلاثة آلاف فرنك الثابتة

ولما كان هذا الدخل السنوى يصل اليهم أقساطا شهرية بمعدل مائتين وخمسين فرنكا فى كل شهر ، فان مدام « شانتو » وجدت نفسها فى حاجة الى نقود للانفاق على البيت قبل أن ينتهى الشهر بعشرة أيام . وكانت المبالغ الصغيرة التى « تقترضها » من « درج الاوراق المالية » تصل احيانا الى مائة فرنك لتسديد اقساط غلاية الغسيل ، وتهبط أحيانا الى عشرة فرنكات لشراء البطاطس والسمك .. وقد بلغ بها الامر انها أخذت تزود « لازار » يوميا بمبالغ صغيرة لنفقاته اليومية ، ومبالغ كبيرة لتسديد ديونه

وهكذا أصبح « درج الاوراق المالية » مثارا لعذابها النفسى بعد أن كان رمزا لثراء الاسرة واستقرارها المالى .. !

وفى ذات يوم ، أقبلت « بولين » من الردهة الخارجية للبيت ، وقالت لعمتها :

ـ لقد جاء الخبـــاز .. انه يطالب بثمن خبز ثلاثة أيام ، ثلاثة فرنكات ..

وبحثت مدام « شانتو » فى جيوبها ، ثم قالت :

ـ آه .. لابد أن أصعد لآتى له بالنقود من الطابق الثانى ..

فقالت « بولين » ببراءة :

ـ لا داعى لأن تتعبى نفسك .. لسوف أصعد أنا .. أين وضعت

كيس نقودك ؟ !

فهتفت السيدة قائلة بسرعة :

ـ لا .. لا .. انك لن تستطيعى العثور عليه .. فأنا لا أتذكر أين وضعته ..

وتلعثمت العمة ، وتبادلت الاثنتان تلك النظرة التى تجعل وجه كل منهما يشحب .. وبعد برهة من التردد ، صعدت مدام « شانتو » وهى تكبت شعورها بالغضب ، وقد أدركت أن الفتاة تعرف الى أين هى ذاهبة للحصول على الفرنكات الثلاثة ..

ولما هبطت ودفعت للخباز المبلغ الزهيد ، أعربت عن غضبها بقولها لـ «بولين » بصوت حاد :

ـ ما هذا يا « بولين » ؟ لقد أفسدت ثوبك ؟ . ماذا كنت تفعلين ؟ هل كنت تروين حديقة المطبخ ؟ .. ألا يمكن أن تتركى مثل هذه الاعمال لـ « فيرونيكا » ؟ يا الهى .. انك تتعمدين هذا .. انك لا تعرفين ان المبلغ الذى تدفعينه لاقامتك لايكفى ، مما يجعلنى عاجزة عن موازنة ميزانية البيت

ولم تستطع « بولين » أن تستمع لاكثر من هذا ، فاندفعت هاربة الى المطبخ حيث راحت تبكى بحرارة . ولم تقل « فيرونيكا » شيئا ، لانها أبت أن تنحاز الى أحد الطرفين ، ولكنها أخذت تعرب عن سخطها بضرب الاوعية بعضها ببعض ، وان كانت فى قرارةنفسها قد بدأت تعطف على الفتاة وتشعر بمدى ماتتعرض له من ظلم !

وظلت حالة المصنع تتدهور من سىء الى أسوأ .. حقا لقد استطاع « لازار » أن يستخرج الاملاح المعدنية الطبية من النباتات البحرية ، ولكن عملية استخراجها كانت تتكلف من النفقات ماجعل أسعارها أكثر ارتفاعا من مثيلاتها المعروضة فى الاسواق . ومع توالى الخسائر ، أخذت أعصاب « لازار » تضطرب .. وبدأ الشعور بالخيبة والسأم ينساب الى نفسه . وأخيرا أعلن للاسرة أنه فشل فى مشروعه ، وأنه لم يعد يطيق احتمال المزيد من الخسائر . وجاء فى وقت الغداء ــ ومعه قائمة طويلة مليئة بالارقام ــ تبين منها أن المبالغ التى « اقترضها » من ثروة « بولين » قد ارتفعت الى مائة الف فرنك ، أى لم يعد باقيا من الثروة غير ثمانين الف فرنك . وقد

قال « لازار » انه لايستطيع الاستمرار فى المشروع خوفا من أن تزيد الخسائر حتى تستهلك الثروة كلها ..

وشحب وجه الام حين علمت بفداحة الخسارة ، وانطلقت « فيرونيكا » الى المطبخ وأغلقت بابه عليها حتى لا يسمع أحدعبارات الغضب والسخط التى أخذت تصبها على رأس هذه الاسرة ،وتظاهرت « بولين » بأنها فرغت من تناول الطعام ، ونهضت لتساعد « فيرونيكا» على رفع أدواته من المائدة الى المطبخ ، وصعد « لازار » الى غرفته بالطابق الثانى حيث أغلق على نفسه الباب ، لينفرد بآلامه وأحزانه بعيدا عن هذا العالم الذى لا يقدر مواهبه ..!

وقال الوالد وهو لايخفى دهشته وجزعه :

ـ اننى لم أكن أتوقع أن تبلغ الخسائر هذا الحد .. مائة ألف فرنك ؟ انها ثروة كاملة .. ياللهول !

فقالت الام بلهجة الواثق من نفسه :

ـ انها ستسترد مالها كله .. ومادام ابننا سيتزوجها ، فسوف يعوضها بدل المائة ألف ، مئات آلاف .. انه عبقرى وقادر على أن يغدو من الاثرياء فى أقصر وقت ..!

ولكن الابن العبقرى لم يلبث أن باع نصيبه فى المصنع لشريكه « بوتينى » نظير خمسة آلاف فرنك ، تدفع على أربعة أقساط .. وقد اعتبر « لازار » نفسه الرابح فى هذه الصفقة ، مؤمنا بأنخسائر « بوتينى » لن تقف عند حد ..

ولكن « بوتينى » ـ بعد أن انفرد بملكية المصنع ـ لم يلبث أن عدل تصميمات الآلات ، وراح ينتج الاملاح المعدنية بالطرق القديمة المألوفة .. وماهى غير أشهر قليلة حتى بدأ يجنى أرباحا طائلة ...

وبدأت نوازع القلق تنوش قلب العجوز « شانتو » الذى اصبح مقعدا تماما بسبب داء النقرس .. كان لايكف عن التفكير فيما يفعل عندما يطالبه المسيو « ساكارد » نائب الوصى ، والمراقبعلى الوصاية ، بالحساب .. كيف سيبرر له انفاق مائة ألف فرنك من مال الفتاة القاصر ؟! حقا ان أحدا ـ سواء كان «ساكارد» أو غيره ـ لم يحاول أن يتدخل فى شئون الفتاة خلال السنوات الثمانية المنصرمة .. ولكن حدث ذات يوم أن أرسل « ساكارد » خطابا

يقول فيه انه سيذهب الى مدينة « كان » لقضاء مهمـة ما ، وانه سينتهز هذه الفرصة ليزور الاسرة ويطمئن على أحوال «بولين»..

وأدركت مدام « شانتو » ان المسيو « ساكارد » يقصد من هذه الزيارة أن يرغمهم على تقديم كشف حساب عن أموال القاصر ...

وخطر لها أن هذا الرجل الثعلبى قد عرف شيئا عن الامـوال التى ضاعت فى مشروع « لازار » لاستخراج الاملاح المعدنية من النباتات البحرية . ولعل أحدا قد وشى اليه بأن هذه الاموال الضائعة أخذت من ثروة القاصر « بولين » !

فماذا تفعل ؟!...

لقد استبد الاضطراب بها وبزوجها .. وتصوروا مبلغ الفضيحة التى سوف تتعرض لها الاسرة فى جميع انحاء المنطقة اذا شاع أن آل « شانتو » قد بددوا أموال الفتاة القاصر التى تقيم بينهـم .. ولاشك أن مثل هذه الكارثة سوف تجعل أفراد الاسرة جميعـا لايستطيعون أن يرفعوا رءوسهم امام احقر صـعلوك فى المنطقـة

وقالت مدام « شانتو » فى النهاية ، وهى جالسة بمفردها مـع زوجها :

ـ اننى لن أهتم بأحد .. حقا ان « بولين » لم تبلغ بعد الثـامنة عشرة ، ولكن يجب أن يتم زواجها من « لازار » فورا .. لان المرأة المتزوجة لاتكون قاصرا بحكم القانون

فسألها « شانتو » قائلا :

ـ هل أنت واثقة من هذا ؟

ـ نعم .. لقد قرأت هذه الفقرة فى القانون صباح اليوم

وكانت مدام « شانتو » فى الآونة الاخيرة تقرأ القوانين المتعلقـة بالوصاية ، حتى تجد مخرجا مما وقعت فيه ..

الا انها لم تلبث أن ترددت فى أمر اتمام الزواج .. وكانت «بولين» بعد الكارثة المالية تحاول أن تتعجل الزواج لكى يصبح مالهـا مال « لازار » فى نفس الوقت .. وكانت ترى انه لاداعى لان تنتظـر ستة أشهر أخرى حتى تتم الثامنة عشرة .. ولكن مدام « شانتو » كانت تريد أن يحصل ابنها على عمل يتكسب منه حتى لا يقال ان « بولين » الغنية تزوجت من ابن عم عاطل طامع فى ثروتها . ولمـا

تجرأت « بولين » ذات يوم وفاتحت عمتها فى امر الزواج ، انفردت هذه بها فى غرفة مغلقة ، وهمست لها ـ كاذبة ـ بأن « لازار » يشعر بأشد الحرج ازاء هذا الموقف ، وانه يكره الاقدام على الزواج بها قبل أن يقدم اليها ثروة مناسبة .. ودهشت الفتاة ، وقالت لعمتها ان الحب عادة لايقيم وزنا لمثل هذه الامور .. وحتى لوانتظرت أن يقدم اليها « لازار » ثروة ، فمتى يتم هذا .. ان من المحتمل ألا يتمكن « لازار » ـ فى يوم ما ـ من أن يجمع ثروة مناسبة . ولكن عمتها أكدت لها أن هذا هو رأى « لازار » ثم جعلتها تقسم على أن تجعل هذا الحديث سرا بينهما خشية أن يفر « لازار » اذا علم به ، ولا يعود الى البيت الا ثريا أو محطما تماما

واقسمت « بولين » ان تتكتم أمر هذا الحديث .. ولكنها لم تستطع أن تتحرر من الشعور بالقلق ، ومن ارغام نفسها على الانتظار فى سكون واستسلام ..

وفى الوقت نفسه ، كان « شانتو » يسأل زوجته كلما استبد به الخوف من زيارة « ساكارد » قائلا :

ـ لماذا لا تعجلين بزواج « بولين » من « لازار » ؟!

وكانت تقول له دائما :

ـ لاداعى للعجلة .. ان الخطر ليس محدقا ..

ـ ولكن مادمت قد وعدت كلا منهما بالزواج من الآخر ، فأرجو الا تكونى قد غيرت رأيك ، والا أصيب الاثنان بصدمة قاتلة ..!

ـ صدمة قاتلة ؟!.. ان الحب لايقتل .. وطالما أن شيئا ما لم يتم ، فمن الممكن أن يبقى بلا اتمام .. ومع ذلك ، فيجب أن نفسح لهما المجال لحرية الاختيار .. فلعل أحدهما يعدل عن هذه الفكرة بعد بضعة أشهر ..

واستأنفت الاسرة حياتها العادية ، وأقبل شتاء آخر ثقيل الوطأة جعل « لازار » يضطر للبقاء فى البيت أسابيع متوالية . وكان يتجول فى أنحائه مكتئبا ، ملولا ، لايدرى ماذا يفعل . وفى بعض الاحيان ، كان يفاجىء الاسرة بمشروعات خيالية جديدة يرى أنها كفيلة بتحقيق آماله فى الثراء العاجل .. وكان يعكف على دراسة كل مشروع بضع ليال ، ثم لايلبث أن يتملكه السأم ، فيعود الى التجوال فى أنحاء

ومما زاد من اضطراب « بولين » وشعورها بالقلق أنها اكتشفت ذات يوم أثناء حديثها مع « لازار » انه متأثر بفلسفة شوبنهور التشاؤمية وأنه يؤمن بأن كل شيء مصيره الى العدم ، وانه لايخاف من شيء فى الدنيا قدر خوفه من الموت .. وقد استبد به هذا الشعور بالخوف حتى جعل حياته جحيما لايطاق ..!

واستطاعت « بولين » بالصبر والاحتمال أن تصرف ذهنه تدريجيا عن فكرة الموت ، وذلك بأن كرست أوقاتها لملازمته ، واللعب معه ، كأنهما طفلان صغيران ، فى غرفة « لازار » الكبيرة المليئة بمختلف الاشياء . وقد بلغ الامر انهما كانا يقضيان أحيانا يوما كاملا فى هذه الغرفة ، يعزفان على البيانو ، أو يقرآن القصص والروايات ، أويعيدان النظر فى النماذج النباتية المستخرجة من البحر ، والتى كان « لازار» قد جاء بها ليفحصها بالمجهر عندما كان مشغولا بمشروعه الكبير ..

وعاد «لازار» الى شغفه السابق بالموسيقى ، وقرر ان يغدو مرة أخرى موسيقارا عالميا ، وعاد الى سيمفونيته « جنة الارض » ليستكملها .. ثم خطر له ان يضع فى نهايتها « مارش الفناء » . واخذ يتصور المخلوقات البشرية وهى تواجه يوم القيامة ، ثم يحول تصوراته الى نغمات عنيفة حينا ، ثائرة حينا ، حزينة مولولة فى كل الاحيان .. وأخذت « بولين » تشجعه دون أن تفهم شيئا منالللحن الا أنه يكاد يثقب أذنيها من فرط عنفه وضجيج نغماته .. وقال « لازار » انه استطاع أخيرا ان يضع قطعة موسيقية سوف يهتز لها العالم بأكمله

وأخذت نزعات التشاؤم تهدأ رويدا فى نفس « لازار » وبدأت تحل محلها مشاعر الرغبات الجنسية ، لاسيما كلما تلامست يداه بيدى « بولين » او شعر بأنفاسها على وجهه ، او احس بصدرها النافر يلمس ظهره وهى منحنية عليه لامر ما .. وقد حدث ذاتيوم أن كان يطاردها ـ أثناء لعبه معها ـ حتى اذا أمسك بمعصميها وجعل ظهرها الى الجدار ، قال لها لاهثا :

ـ ماذا أفعل معك الان ؟..

وامتزجت أنفاسهما الحارة ، وكانت « بولين » لاتزال مستغرقة

فى الضحك .. ولكن شيئا ما فى نظـــرات « لازار » جعلها تكف عن الضحك بسرعة ، ثم تقول وهى تحاول الافلات منه :

ـ لا .. لا .. دعنى .. ارجوك ..

وقبل شفتيها بحرارة .. وبدا لهما أن الغرفة تتمايل بهمـا ، واحسا كأن تيارا جارفا يحملهما الى هاوية عميقة ، وكادت «بولين» أن تستسلم وتلقى بنفسها بين ذراعى « لازار » الا أنها استجمعت كل قواها النفسية والبدنية وحررت يديها من قبضتيه ، وادارت وجهها المضطرم بالانفعال عن وجهه ، ثم تهالكت جالسة وهى تلهث قائلة :

ـ لقد آلمت يدى يا « لازار » !

ومنذ ذلك الحين وهما يشعران بالجاذبية الجنسية تقرب بينهما، وتضفى على تلامس أيديهما أو جسديهما احساسا جديدا . وكـان « لازار » يدرك ان « بولين » على استعداد ـ رغم مقاومتها ـ لان تسلم له نفسها فى احدى اللحظات التى تتلاشى فيها الارادة أمام قوة العاطفة .. ولكنه قرر فى ذات نفسه أن يلوذ بالحكمة والاتزان ،لانه كان يؤمن بأنه سيكون المسئول ـ أولا وأخيرا ـ اذا ارتكب معهـــا هذه الخطيئة !

على أن هذا الصراع النفسى جعله يزداد حبا لها ، ورغبة فيها .. ومن ثم لجأ الى الموسيقى يفرغ فى نغماتها عواطفه المشحونة بالرغبة الجنسية ، ويطهر بها أدران نفسه ، ويجعل حبه ـ عن طريقها ـ صافيا كالنبع النمير ..

وبدا له كل شىء طاهر فى النهاية .. وراح يقدسها فى حبه وكأنها ملاك طاهر ، حتى لقد بلغ من تقديسه لها أنه لم يعـد يفكر فى تعجيل يوم الزواج

وذات يوم ، قال « شانتو » لزوجته فى اضطراب شديد عقب عودتها من الخارج :

ـ انظرى يا « ايوجين » .. اقرأى هذا الخطاب الذى وصـلنى اليوم ..

وكان خطابا من « ساكارد » يهددهما فيه بابلاغ الامر الى مجلس الاسرة ، ثم الى المجلس الحسبى ، اذا لم يقدما اليه كشف حســاب

بشأن أموال القاصر « بولين » ..

واضطربت مدام « شانتو » بدورها ، وغمغمت قائلة لزوجها :

ــ هذا اللعين ؟!..

وتبادل الاثنان النظرات ، وقد شحب وجهاهما .. ولكن « شانتو » قال أخيرا :

ــ ألا ترين أن الوقت قد حان لزواجهما حتى ننجو من هذا المأزق ..!

ولكن مدام « شانتو » ظلت تراوغ ، ثم قالت فى النهاية :

ــ اننى لاأستطيع ان أضحى بسعادتهما لانقاذنا من هذه الورطة.. فمن يدرينا أنهما متحابان فعلا ؟.. ألا يجوز مثلا أن « بولين » لم تعد تحب « لازار » أو أن العكس صحيح ؟ .. ألا يجوز أنهما يحبان أحدهما الآخر كما يحب الاخ أخته ، لا أكثر .. ثم لماذا نلجأ الى زواجهما للانقاذ ؟.. لقد بلغت « بولين » الثامنة عشرة فى الشهر الماضى ، واصبحت الان حرة التصرف فى أموالها

واستطردت مدام « شانتو » تقول وقد استعادت هدوءها :

ــ ان المادة ٤٧٨ تعطى للقاصر الحق فى اختيار أى شخص ليسوى الحسابات مع الوصى .. وماعلينا الان الا أن نبحث عن شخص موثوق به ، يتفاهم معنا على هذه الحسابات ويوقع بالموافقة عليها بعد أن تأذن له « بولين » بذلك ..

وقال « شانتو » :

ــ ومن أين لنا هذا الشخص ؟

وفجأة قالت مدام « شانتو » وكأنما هبط عليها الوحى :

ــ آه .. مارأيك فى الدكتور « كازينوف » ؟ .. انه يعرف مشاكلنا ولا أعتقد أنه سيرفض التعاون معنا ..

فأومأ « شانتو » برأسه ، ثم قال وهو يحملق فى وجه زوجته :

ــ اذن فأنت تنوين أن تردى لـ « بولين » كل ثروتها .. الباقى من كل ثروتها ؟

وصمتت برهة كانت خلالها تتصفح كتاب القانون ، ثم قالت أخيرا :

ــ طبعا سأرد اليها كل ماتبقى من أموالها ، وبذلك نرفع هــذا العبء عن كاهلنا .. ويكفى أننا قد أصبحنا موضع الاتهام بسبب هذه الثروة .. اننى على استعداد للتبرع بخمسة فرنــكات اذا استطعت أن أتخلص من هذا العبء الان .. وعلى كل حال فلابد أن نعيد هذا الباقى يوما ما ..

وفى اليوم التالى ، عندما جاء الدكتور « كازينوف » ليتناول طعام العشاء كالمعتاد فى مساء كل يوم سبت ، تحدثت اليه مدام «شانتو» فى الامر ، وطلبت منه أن يسدى اليها والى الاسرة هذا الجميل .وقد اعترفت فى حديثها معه بكل شىء ، وذكرت الاسباب التى ادت الى ضياع المائة الف فرنك دون استئذان مجلس الاسرة .. ثم عرجت فى حديثها الى موضوع الزواج ، واكدت قيام الحب بين « بولين » و « لازار » ثم حدثته أخيرا عن الفضيحة المحتمل وقوعها اذاتطورت الامور ووصلت الى المحاكم الحسبية ..

واصر الطبيب ــ قبل أن يعد بشىء ــ على أن يتحدث أولا مــع « بولين » على انفراد . وكان يعلم منذ فترة طويلة أن الاسرةعبثت بثروة الفتاة ، واعتادت أن تختلس منها مبالغ متفاوتة بانتظام .ومع ذلك فقد التزم الصمت خشية أن يملأ بالقلق نفس الفتاة .. أماالان فقد رأى أن من واجبه أن يحذرها ، وان يطلعها على الموقف بكل صراحة ، قبل أن يصبح شريكا للاسرة فيما فعلت ..

وتحدث مع الفتاة بكل صراحة ووضوح فى غرفتها الخاصة وكانت مدام « شانتو » قد حضرت الجزء الاول من المقابلة ، ثم لم تلبث أن انصرفت تاركة الاثنين معا على انفراد . وفى خلال اللحظات القليلة التى جلستها مدام « شانتو » مع « بولين » والطبيب ، قالت ان الزواج يتوقف على خروج « بولين » من الوصاية بصفة قانونية ، وذلك لان « لازار » لن يقبل أبدا أن يتزوج طالما كان متهما من مجلس الاسرة بأنه يحاول المراوغة فى تقديم الحساب . وكان لحديث العمة أثره الكبير فى تحديد موقف « بولين » وفى اثارة عواطفها الطيبة نحو الاسرة .. ومن ثم أخذت تتوسل للطبيب لكى يبذل كل جهــده ليسوى الامور مع آل « شانتو » ومجلس الاسرة . وقد أصرت أمام الطبيب على أن تضحى بكل شىء حتى لاتفقد عطف الاسرة وحــب

« لازار » . وعبثا حاول الطبيب أن يوضح لها حقيقة الموقف ...
بل لقد تمادى وأراد أن يثير فى نفسها الخوف من احتمالات المستقبل .. احتمالات الافلاس التام ، والجحود ، والآلام النفسية المنتظرة . وكان كلما أسرف فى اظلام الصورة ، ازدادت هى اصرارا على موقفها ، ورغبة فى التضحية بالمزيد من المال ..

قالت له :

ـ لا .. لا .. أرجوك .. لا تثبط همتى ، ولاتجعلنى اندم على على شىء ، فأنا قد ورثت عن أبى طبيعة الحرص الشديد ، واريد ان أتحرر منها .. وأعتقد أنى نجحت فى هذا .. ليأخذوا كل ماتبقى من مالى اذا أرادوا ، طالما أنهم يعوضوننى عنه بالحب والحنان ..

وقال لها الطبيب :

ـ اسمعى .. هل تضحين بكل شىء من أجل حبك لابن عمك ..

فاضطرم وجهها خجلا ولم تجب ..

وهنا قال الطبيب :

ـ وكيف يكون الحال لو أن « لازار » امسك عن حبك فيما بعد

فنظرت اليه فى فزع ، وامتلأت عيناها بالدموع ، وهتفت قائلة بكل مالديها من قوة :

ـ لا .. لا .. لا .. لماذا تريد ان تشقينى ؟

ولم يسع الطبيب عندئذ الا أن يستسلم ، لانه لم يستطع أن يؤذى هذه الفتاة الكريمة عن طريق تحطيم مشاعرها الطيبة ، وافساد خيالها الجميل عن الحياة .. ولماذا يفعل والحياة نفسها سوف تقسو عليها بعد سنوات قليلة ؟!

وتولت مدام « شانتو » قيادة المعركة بمهارة بالغة ، وتم اعداد جميع الاوراق اللازمة لاخراج « بولين » من الوصاية ، وتكليف الدكتور « كازينوف » بالاشراف رسميا على مصالحها حتى تبلغ الحادية والعشرين أو حتى تتزوج . ووافق مجلس الاسرة على هذه الإجراءات ، وذهبت مدام « شانتو » مع الطبيب الى مدينة « كان » للحصول على توقيعات الجهات الرسمية على هذه الاجراءات

وتصادف أن كان « لازار » يقوم بزيارة بعض أصدقائه فى مدينة « كان » .. فلما عاد ، قال لوالديه بحماس :

ـ ان « لويز » ستفاجئنا بالزيارة فى الاسبوع المقبل .. اننى لم اكد أعرفها حين رأيتها .. انها تقيم الان مع ابيها فى بيته . لقد اصبحت رشيقة ، جميلة ، جذابة ..

ونظرت « بولين » اليه فى دهشة من الحماس الذى رن فى صوته وهو يتحدث عن « لويز » .. أما مدام « شانتو » فقد هتفت قائلة :

ـ آه .. بمناسبة الحديث عن « لويز » التقيت فى المركبة العامة بسيدة تعرف ال « تيبو دير » .. وقد كدت اذهل حين علمت من هذه السيدة أن والد « لويز » قد رصد لها « دوطة » زواج مقدارها مائتى ألف فرنك ، لاشك أنها تعتبر الان فى الوسط الاجتماعى من أغنى الاغنياء

فقال « لازار » :

ـ ان « لويز » ليست فى حاجة الى اغراء أحد بالمال ليتزوجها .. انها جميلة الى حد مثير .. هذا فضلا عن خفة ظلها ..

ومرت سحابة قاتمة على وجه « بولين » وارتعدت شفتاها بعصبية ، ولمح الدكتور « كازينوف » ماطراً على وجهها ، فرفع كأسه وقال :

ـ لنشرب نخب زواج « لازار » و « بولين » . . . وأرجو أن يكون قريبا ..

ولم تضحك مدام « شانتو » بل ولم تبتسم .. وانما رفعت الكأس الى شفتيها فى بطء . أما « شانتو » نفسه ، فقد اومأ برأسه موافقا دون أن يشرب شيئا لانه ممنوع من شرب الخمر . وأمسك « لازار » بيد « بولين » فى حب وحنان وقال انه يتمنى أن يقترب هذا اليوم حتى يضع كل حياته بين يدى ملاكه الحارس . واضطرم وجه « بولين » بالسعادة ، وضغطت على يده ، وشرب الجميع فى ابتهاج وسرور ..

وعاد الطبيب يقول :

ـ وأرجو ان يعيش كل منا حتى يبلغ المائة من عمره !

وكان يؤمن بأن فى مقدور الانسان أن يعيش مائة عام اذا عرف كيف يعتدل فى طعامه وشرابه ..

وبعد أن فرغ الجميع من تناول الطعام ، أصرت مدام « شانتو »

على أن تصحب « بولين » الى درج المكتب المودع فيه بقية الثروة ، وهناك سلمتها الثمانين ألف فرنك قائلة :

ــ هاك يا عزيزتى ثروتك .. يجب منذ الان أن تحتفظى بهـا بنفسك

فقالت الفتاة بلهفة :

ــ لا .. لا .. احتفظى بها ياعمتى لديك

فردت مدام « شانتو » بكبرياء :

ــ لقد وعدتك ياعزيزتى أن أسلمك ثروتك عندما تبلغين ســن الرشد ، واذا لم استطع أن أضاعفها لك ، أو احتفظ بقيمتها كاملة ، فانك أول من يعرف السبب .. والان ، عليك أن تحتفظى بهـا وقد أصبحت قادرة على رعاية شئونك بنفسك

وقالت الفتاة فى حيرة :

ــ ولكن أين أضعها .؟

ــ احتفظى بها فى خزانة ملابسك الخاصة ..

وقالت « فيرونيكا » لنفسها حين استرقت السمع ذات يوم وعلمت أن الثروة قد هبطت الى ثمانين ألف فرنك :

ــ يا للمسكينة « بولين » .. لقد عرفوا كيف « يســلخونها » بمهارة !



الفصل السابع

الحاجز البحرى

وصلت « لويز » فى يوم سبت لتقضى مع الاسرة شهرين كاملين.
وكانت الاسرة ـ عندما وصلت «لويز» ـ مجتمعة فى الشرفةالكبيرة، وكان النهار قد بدأ ينسحب أمام طلائع المساء .. وكان الجو حارا فى ذلك اليوم من شهر أغسطس ، لولا أن نسائم البحر كانت تخفف من قسوته . وكان الاب « هورتيير » راعى الكنيسة ، قد وصل وراح يلعب الشطرنج مع العجوز « شانتو » بينما جلست بجوارهما مدام « شانتو » تشتغل فى قطعة تطريز ، وعلى مسافة بضع ياردات وقفت « بولين » أمام مقعد صخرى مستطيل جلس عليه أربعة أطفال من فقراء البلدة : ولدان ، وبنتان ..

وصاحت مدام «شانتو» وهى تضع قطعة التطريز جانبا ، حين رأت «لويز» مقبلة :

ـ آه .. لقد حضرت يا «لويز» .. كنت أنوى أن أذهب للقائك فى مفترق الطرق خارج البلدة

وقالت « لويز » ان « ماليفوار » أحضرها بمركبته فى سرعة بالغة .. وكانت رغم الرحلة ، فى سمت جيد ، بحيث لم يكن ثمة ما يدعو الى ان تغير ملابسها • وقد اخذت تقبل الجميع ، الواحد بعد الاخر •• بينما أسرعت العمة «شانتو» الى اعداد الغرفة الاضافية لاقامتها..

وطوقت « لويز » خصر «بولين» بحرارة وشوق ، وقالت لها ضاحكة :

ـ انظرى الى ياعزيزتى .. ألم نكبر معا ونصبح غادتين رائعتين ؟ .. اننى الآن قد تجاوزت التاسعة عشرة .. آه ..

ثم صمتت برهة ، قبل أن تردف قائلة :

ـ دعينى أهنئك يا عزيزتى .. لا تكذبى .. لقد سمعت أنالزواج سيتم فى أقرب وقت ؟ او على الاصح فى الشهر القادم ..

وعانقتها «بولين» بحرارة الاخت ، واضطرم وجهها بشدة عندما تحدثت « لويز » عن الزواج ، ثم قالت مضطربة :

ـ لا « يا لويز » لقد سمعت خطأ .. فاننا لم نحدد الموعد بعد ، وربما يتم كل شىء فى الخريف القادم ..

فضحكت « لويز » قائلة :

ـ حسنا جـدا .. المهم ألا تنســونى .. اليس كذلك ؟.. أين «لازار» ؟!

فرد العجوز « شانتو » قائلا :

ـ انه فى بلدة بابو لمفاوضة المحافظ فى أمر ما .. وسوف يعـود الليلة ..

وكان « لازار » قد انغمر فى مشروع جديد ، وهو مشروع اقامة حواجز من الكتل الخشــبية والحجرية لترويض المد البحرى ومنعه من اغراق البلدة مرتين فى العــام ، وتحطيمه لبيوتها ، الواحد بعد الاخر . وكان المد السابق ـ فى شهر مارس ـ قدحطم بيتين آخرين

وكان المشروع الذى وضعه «لازار» لانقاذ البلدة من غوائل البحر يحتــاج الى اثنى عشر الف فرنك لتنفيــذه .. ومن ثم ذهب الى المحــافظ فى بلدة بابو ليقنعه بدعوة مجلس المحافظة والموافقة على اعتماد هذا المبلغ لتنفيذ المشروع ..

وقال الأب «هورتيير» فى معرض ذكرياته عن بلدة بونفيل ، وهو يلعب مع العجوز « شانتو » :

ـ هل يصدق أحد انه كان لهذه البلدة حقــول واســعة ممتدة بالقرب من الشاطىء فى يوم ما .. يبــدو لى أن أهالى هــذه البلدة يدفعون فى كل عام ثمن خطاياهم التى لا تغتفر .. يكفى أن أقول ان الذين يترددون على الكنيســة كل يوم أحــد لا يزيدون على سبعة أشخاص ..

وكانت «بولين» عندئذ قد عادت الى المقعد الصخرى المســتطيل الذى كان يجلس عليه الاطفال الفقراء الاربعة ..

وقالت « لويز » لها دون أن تقترب منهم :

-- من هؤلاء ..؟

فردت « بولين » قائلة :

ـ هؤلاء بعض أصدقائى ..

وكانت أريحية « بولين » قد امتدت عندئذ حتى شملت الفقـراء من سكان البلدة ، فنشرت اجنحة محبتها على البؤساء .. وقد بلغ من عطفها عليهم أنها كانت لا تنفر من خطاياهم، ولاتجزع من جحودهم، ولا تعاتبهم على سخريتهم منها ، ولا تعاقب الذى يحاول أن يسرقها؛ بل كانت تعد الفطائر وتقدمها لهم ، وتصنع الجوارب الصـــوفية لابنائهم ، وتقدم الدواء للمرضى منهم ، وقد جعلت مساء السبت موعدا للقائها بالاطفال الفقراء فى كل أسبوع

وعرف الاهالى الخبثاء كيف يستغلون عطفها ، فكانوا يرسلون اليها أبناءهم وهم فى حالة يرثى لها من الجوع والعرى

وقالت «بولين» لـ «لويز» ضاحكة :

ـ أترين ؟.. اننى الان أشـــبه الســـيدة الكريمـــة التى توزع الصدقات يوم السبت من كل أسبوع ..

ثم وجهت حديثها للأطفال قائلة :

ـ آه .. كف يا « كونين » عن قرص « هوتلارد » لسوف اغضب منك اذا لم تحسن سلوكك ..

ثم بدأت عملية الاحسان ، فاستدعت أولا الطفل «هوتلارد»وكان فى نحو العاشرة من عمره ، نحيلا سقيما شاحبا . وقد حضر اليها وكشف عن ركبته ، حيث رأت « بولين » جرحا عميقا فيها .. وكان أبوه قد أرسله الى السيدة الشابة «بولين» لتضع على الجرح شيئا من المراهم والمطهرات

ولما فرغت من عملها ، قالت هامسة لـ « لويز » :

ـ ان هذا الطفل من أسرة «هوتلارد» وهى أغنى أسرة بين أهالى البلدة .. فالوالد يمتلك أكبر قارب للصيد ، الا أنهم بخلاء جدا ، ويعيشون فى حالة شديدة من الفقر والفاقة . والاسوأ من هذا ، أن الوالد ظل يضرب زوجته كل يوم حتى كاد أن يقضى عليها ، ثم تزوج خادمته ، وهى امرأة دميمة أقسى قلبا منه .. ولكن الزوج يضرب المرأتين الآن .. وهذا الطفل يعيش معذبا بين أبيه وزوجته الثانية

ودون أن ترى نظرة الاشمئزاز التى بدت فى عينى «لويز» رفعت صوتها قائلة :
ـ هذا دورك أيتها الصغيرة .. هل شربت زجاجة الدواء المقوى؟
وكانت هذه العبارة موجهة الى الطفلة ابنـة «برون» ـ خـادم الكنيسة ـ وكانت تبدو فى براءة القديسة « سانت تريز » عندما كانت طفلة صـغيرة مثلها .. الا أن ابنـة «برون» كانت البثور تعلو وجهها .. نحيلة الجسم ، تطل من عينيها أمارات الاضطراب العصبى رغم أنها لم تكن تتجاوز يومذاك السابعة من عمرها ..
وقالت الطفلة متلعثمة :
ـ نعم يا آنسة شربت الدواء ..
وصاح الاب « هورتيير » دون أن يرفع عينيه عن رقعة الشطرنج:
ـ كاذبة لقد شرب أبوها الدواء لان به نسبة كبيرة من الخمـر ، وكانت رائحة الخمر تفوح من فمه أمس ..!
وهنا استشاطت «بولين» غضبا .. فقـد كان آل « برون » ـ الذين لا يمتلكون قاربا ـ يلتمســون الرزق من صـيد الجنبرى والكابوريا كلما ظهرت اسرابها على الشاطىء الصخرى ليلا . وكان الوالد «برون» يحصل على بعض الاعانات ـ بوصفه خادم الكنيسة ـ ولولا ادمان الوالدين للخمر ، لامكن للاسرة أن تعيش حياة ميسرة الى حد ما . وكثيرا ماكان الاهالى يرون الاب والام غائبين عن الوعى امام بيتهما من فرط شربهما لنوع من الخمر الرخيص القوى يسمى « كالفادوس » .. هذا بينما كانت طفلتهما الصـغيرة ، ترى وهى تشرب بقايا كؤوسهما منتهزة فرصة غيبوبتهما .. واذا عجز الوالد عن الحصول على الـ «كالفادوس » عمد الى دواء ابنته وشربه !
وقالت لها « بولين » :
ـ أيشرب أبوك الدواء بعد كل ما أبذله من جهـد فى اعداده .. اسمعى ، لسوف أحتفظ بالزجاجة هنا ، ويمكنك أن تأتى وتشربى نصيبك منه كل يوم فى الساعة الخامسة مساء !
ثم جاء دور الصبى ابن «آل كوش» ، وكان فى نحو الثانية عشرة .. طويلا معروق اليدين ، قدمت « بولين » اليه رغيفا ووعاء من الحساء وخمسة فرنكات . وكانت له أيضا قصة دامية .. فبعد انهيار منزل الاسرة ، هجر ابوه « كوش » زوجته ، وذهب ليعيش مع ابنة عمه .

اما الزوجة المهجورة ، فقد لاذت بالحيـــاة فى بيت الجمرك المتداعى المهجور ، وراحت تبيع جسدها لكل من يريد نظير فرنكات قليلة تقيم أودها .. وذلك كله رغم دمامتها ومنظرها المنفر . وكان الابن ـ رغم ادراكه لكل شيء ـ يعيش مع أمه وهو يكاد يموت جوعا ، وكلما حاول احد انقاذه منها ، رفض وانطلق يعدو بعيدا !

وكانت « لويز » تشيح بوجهها اشمئزازا ، وهى تسمع تفاصيل هذه المأساة من « بولين » التى كانت تسردها بصراحة الانسان الذى قرأ كثيرا من كتب الطب حتى لم يعد يجد فى ذكر الشئون الجنسية ما يخجل

واستطردت « بولين » تقول :

ـ وهذه الطفلة الصغيرة ابنة آل « كونين » .. هذه الطفلة البريئة الرقيقة التى تبدو كالوردة المقفلة دون أن تتجاوز التاسعة من عمرها ، تعيش مع والديها اللذين لجأ للحياة معهما ذلك الوغد « كوش » .. لقد كان والداها يعيشان فى شيء من الرخاء ، وكان لهما قارب خاص للصيد .. ولكن الوالد أصيب بداء الشلل المنتشر فى هذه المنطقة ، وسرعان ما استولى « كوش » الذى كان يعمل بحارا فيما سبق ، على القارب ، ثم على الزوجة أيضا . وأصبح هو الآن سيد البيت .. وقد تمادى فى شره ، فأخذ يضرب الزوج المريض ، ويرغمه على النوم فى سرير صغير ، بينما ينام هو مع الزوجة فى السرير الكبير ، وفى نفس الغرفة . وأنا الآن أرعى هذه الطفلة . ومن دواعى الالم أنها لا تنجو من بعض الضربات التى يوجهها الوغد الدخيل الى أبيها .. وأسوأ من هذا أنها ترى وتفهم كل شيء ..

وتوقفت « بولين » عن الحديث لكى تسأل الطفلة قائلة :

ـ كيف الحال عندكم ؟ ..

وقالت الطفلة التى كانت تنصت الى حـديث « بولين » باهتمام وبسرور خفى :

ـ ان أمى بدأت تشترك فى ضرب أبى مع عشيقها .. وفى الليـلة الماضية وضعت بجوار سريره الصغير اناء فارغا من الماء والخمر وقالت له انها سوف تتركه هكذا حتى يموت .. !

ولوت « لويز » شفتيها بحركة تنم عن الاشمئزاز البالغ ، وتعجبت

من صديقتها « بولين » التى تهتم بهذه الحشرات البشرية التى تعيش حياة الوحوش فى الغابة ..

واخيرا قالت معبرة عن نفورها :

ـ هذا يكفى ياعزيزى .. اننى لم أعد أطيق سماع المزيد ، ويبدو ان امثال هذه المخلوقات ، لا تكفى امواج البحر لتطهر الدنيـا منها !

وصاح الاب « هورتيير » وهو يحرك احدى قطع الشطرنج :

ـ هذه سدوم وعمورة أخرى .. وقد أمضيت عشرين سنة أحذر هؤلاء المذنبين من غضب الله ، ولكن يبدو أن اللعنة السـماوية قد حقت عليهم

وأراد « شانتو » أن يدافع عن مركزه بصفته عمدة للبلدة ، فقال :

ـ لقد طالبت المحافظة بانشاء مدرسة هنا ، ولكن عدد الاطفال اقل من ان يحتاج الامر الى فتح مدرسة .. ولهذا فاننا نلحقهم بمدرسة فيرشمونت ، ولكنهم فى الواقع لا يذهبون لبعد المسـافة

وفيما كانت « بولين » على وشك الفراغ من مهمتها .. أقبلت « فيرونيكا » بوجهها الساخط ، وهى تقول بلهجتها المتذمرة دائما :

ـ ها هو ذا طفل آخر يا آنسة « بولين » ..

وكانت الوافدة الجديدة طفلة صغيرة لاتزيد عن الخامسة ، مهلهلة الثياب ، قذرة الوجه ، ملبدة الشعر ، وقد شرعت ـ بجرأة الطفلة المعتادة على التسول فى الطرقات ـ فى رفع عقيرتها فى طلب الاحسان ، وفى الدعاء للمحسنين :

ـ الرحمة ياسادة .. الرحمة .. اننى جائعة .. وأبى مكسور الساق ..

وقالت « بولين » لـ « فيرونيكا » :

ـ اليست هذه ابنة « نورمال » ؟

ولكن الاب « هورتيير » أسرع يقول فى غضب :

ـ انها ابنة الشيطان نفسه ، لاتصدقوها .. لقد مضت خمسة وعشرون عاما على اصابة أبيها بالتواء فى قدمه .. انهـا عائلة من اللصوص والمتسولين . ووالدها يساعد المهربين ، وأمهـا تسرق المحصولات من حقول فيرشمونت ، وجدها يسرق المحـار ليلا من مصايد الحكومة فى روكبواز .. وهاهم قد جعلوا من هذه الطفلة

متسولة ولصة تتسلل الى بيوت الغير لتسرق كل مايمكنها سرقته .. انظروا كيف تحملق بنظرات جائعة الى كيس تبغى !

وكانت الطفلة حقا لاترفع عينيها عن كيس التبغ الخاص بالاب « هورتيير » الا أنها بذلت جهدها حتى تمتنع عن اختطافه ، وعادت تقول وكأنما لم تسمع شيئا من تاريخ أسرتها الحافل :

ــ أبى مكسور الساق .. اعطونا شيئا نأكله حتى لانموت جوعا !

ولم يسع « لويز » ، الا أن تضحك عاليا ، وهى ترى الطفلة الصغيرة تتصرف كأنها متسولة محترفة .. ولكن « بولين » قالت للطفلة بغضب وهى تعطيها قطعة من ذات الفرنكات الخمسة :

ــ اسمعى .. لسوف أعطيك مثل هذه القطعة كل أسبوع اذا امتنعت عن التسول فى الطرقات ..

وهتف الاب « هورتيير » لـ « بولين » محذرا :

ــ ابعدى كيس نقودك عن عينيها والا سرقته منك ..

وفى تلك اللحظة ، هبطت مدام « شانتو » بعد أن اعدت الغرفة لاقامة « لويز » فلما رأت الطفلة الصغيرة ابنة « ال نورمال » وعلمت أن « بولين » وعدتها بخمسة فرنكات كل أسبوع ــ أى بعشرين فرنكا فى الشهر ــ قالت فى غضب :

ــ اننى لا أحب أن أرى هذه اللصة الصغيرة هنا فى بيتى يا « بولين » ان من حقك ان تتصرفى فى أموالك الان ، كما يروق لك .. ولكننى لا أسمح لك ببعثرتها على هؤلاء الصعاليك .. فأنا لازلت مسئولة عنك أدبيا ..

وعادت « فيرونيكا » الى الظهور بعد أن اختفت فى المطبخ برهة ، ثم قالت :

ــ لقد أرسل الجزار يطالب بحسابه .. انه يريد ستة وأربعين فرنكا

وأمسكت مدام « شانتو » عن الحديث فى اضطراب ، ثم راحت تفتش فى جيوبها على غير جدوى ، وأخيرا قالت لـ « بولين » :

ــ هل معك هذا المبلغ ياعزيزتى « بولين » ؟ .. اننى لا أملكه الان ، ولن أستطيع أن أصعد الى الطابق الثانى مرة أخرى ..

وذهبت « بولين » وراء الخادمة لتدفع للجزار حسابه ، وكان هذا

الموقف يتكرر بضع مرات كل شهر منذ ان استلمت باقى ثروتها ..
وقالت « فيرونيكا » بغضب بعد انصراف الجزار :
ـ هاهى ذى أموالك تطير مرة أخرى ، ولكن على يديك هذهالمرة . ان الله نفسه لايرضى بهذا ..
ولما عادت « بولين » الى الشرفة ، كانت مدام « شانتو » تقول بكل رقة للفتاة « لويز » التى كانت ترنو الى البحر بنظرات حالمة :
ـ آه .. ان « لويز » الحبيبة تعيش مرة أخرى فى عالم الاحلام .. سوف تشبعين ـ يا حبيبتى ـ من منظر البحر اثناء اقامتك معنا . لقد أعددت لك غرفتك ، وهى أمام غرفتى كما تعلمين .. لسوف أنعم بجيرتك طيلة هذين الشهرين ..

***

ولم يحضر « لازار » الا فى اليوم التـــالى .. وكان قد ذهب الى مدينة « كان » ليقنع المسئولين فيها بجدوى مشروعه ، وليظفر منهم بالموافقة على اعتماد المبلغ اللازم . ورغم أنه عاد دون أن يظفر بهذه الموافقة ، الا أنه قال ـ بلهجة التأكيد ـ ان الجميع وعدوه باعتمـــاد المبالغ اللازمة لانقاذ البلدة من غوائل البحر . ولكن « لازار » كان ـ كعادته ـ متحمسا ملهوفا لايكاد يطيق التـــأخير يوما فى بدء تنفيذ المشروع . وقد قال معربا عن ضيقه :
ـ آه .. لو كان لدى الاثنا عشر الف فرنك ، لاقرضتها للبلدية ، ولبدأت فى تنفيذ المشروع .. ثم استرد المبلغ عند اعتماده من المجلس .. بل اننا لن نحتاج الى هذا المبلغ كله دفعة واحدة ، بل سنحتـــاج الى جزء منه لنجرى التجارب ، يكون مجلس المحافظة عندها وافق على اعتماد المبلغ بأكمله
وصمت برهة ريثما يلتقط أنفاسه ، واستطرد يقول :
ـ واهم من هذا كله أرى أن نبادر بالعمل قبل أن يرسل الينـــا المجلس مهندسيه الذين لن يهمهم شىء الا تعطيـــل العمـــل والادلاء بالنظريات التى لايمكن تطبيقها .. ان المحافظ نفســه أعرب لى عن دهشته البالغة لبساطة المشروع وقلة تكاليفه ..
وكان « لازار » شديد الانفعال والحماس كلما فكر فى أنه قادر على ترويض البحر وكبح جماحه .. وكان فى أعماق نفسه يشعر بالحقد

على هذا البحر باعتباره المسئول عن فشل مشروعه الاول .. مشروع استخراج الاملاح المعدنية من النباتات البحرية بالوسائل العلميـة . ورغم انه لم يحاول صب لعناته ـ علنا ـ على راس البحـر ، الا أنه كان ينتظر اليوم الذى ينتقم فيه منه ، وأى انتقام اعظم من أن يحد من طغيانه ، ويوقفه عند أقدام البلدة يلعقها دون ان يجرؤ على الصعود اليها ! ؟

واذا غضضنا الطرف عن هذا النزعات الشخصيـة ، أليس فى المشروع لمسة انسانية ؟ . أليس فى تنفيذه فائدة للصالح العام ؟

وعدا هذا كله كان مشروع « لازار » يقوم على أساس بسيط ،وهو غرس كتل من الخشب فى صخـور الشاطىء ، وتدعيمهـا بالكتل الصخرية ،والربط بينها بألواح خشبية تكون فى المستقبل مثابة لتراكم الاعشاب البحرية مع الرمال مما يزيد الحواجز قوة وتدعيما ..

وقد ظل « لازار » أسابيع عديدة وهو يصنع فى منـزله نماذج مصغرة لهذه الحواجز ، ثم يسلط عليها تيارات مائية مناسبة لحجمها حتى يعرف مدى قوة تحملها . وانتقلت حماسته فى تنفيـذ المشروع الى « بولين » ولكنها كانت تنظر الى الامر كله فى حكمة واتزان . وكلما نظرت الى البحر ورات عنف ضربات الموج للشاطىء ، احست فى أعماق نفسها أن الحواجز التى يقترحها « لازار » لن تكون بين يدى البحر الا كالدمية بين يدى رجل قوى ..

وفى ذات ليلة ، جلست الى نافذة غرفتها المطلة على البحـر حتى ساعة متأخرة من الليل .. وكان « لازار » فى الايام القليلة السابقة ، قد بدأ يعرب عن سخطه وملله ، قائلا انه سـوف ينفض يديه من المشروع كله مادام لايجد المال اللازم لتنفيذه ، وانه سوف يرحل الى استراليا ليشق طريقه نحو الثراء العاجل !

وظلت « بولين » فى جلستها الى النافذة تفكر فى موقف « لازار » وتنظر الى البحر الذى كان مده يزحف على البلدة ، ثم تعود بذاكرتها الى أولئك البؤساء الذين يتشردون كل عام من بيوتهم بسبب انقضاض هذا البحر عليهم ..

ونهضت من مكانها ، ومضت الى فراشها حيث جلست على حافته وهى تتساءل : ماذا لو حاولنا اقتحام المستحيل ؟ . أليس هناك أى

احتمال فى نجاح مشروع « لازار » ؟ .. وحتى لو كان احتمال الفشل اكبر جدا من احتمال النجاح ، فما قيمة المال بجانب ارضاء نفسية « لازار » ومنعه من الرحيل الى أستراليا ؟

ونامت « بولين » وهى تحلم بفرحة أهالى البلدة عند نجاح المشروع ، واطمئنانهم عاما بعد عام على أن البحر لن يمتد اليهم ليشردهم ويحطم بيوتهم

وفى صباح اليوم التالى ، نادت عليه قبل أن يهبط ، وقالت له ضاحكة :

ـ أتعرف أنى حلمت هذه الليلة أنى أقرضتك المبلغ اللازم لتنفيذ مشروعك يا« لازار » ؟

واستشاط الشاب غضبا ، ورفض عرضها قائلا بحدة :

ـ لا .. أتريدين منى أن أغادر هذا البيت فلا أعود اليه ؟ ألم يكف ماحدث بسبب مصنع الاملاح المعدنية ؟ .. اننى لازلت حتى الان أشعر بالخجل القاتل كلما تذكرت هذه المأساة وان كنت لا أتحدث الى أحد بذلك

ولكنه ، بعد ساعتين فقط ، وافق على قبول المبلغ ، وتصافح مع « بولين » فى حماس .. وأكد لها أن المبلغ سيكون قرضا يسدده بمجرد أن يوافق مجلس المحافظة على الاعتماد اللازم ، بل انه لن يأخذ الاثنى عشر ألف جنيه دفعة واحدة ، وانما يكفى أن يتسلم المبالغ القليلة اللازمة للاعمال التمهيدية ريثما تتم موافقة مجلس المحافظة

وفى نفس الليلة ، استدعى « لازار » النجار الخبير من بلدة أرومانش ، وعقد معه جلسات طويلة .. وسار بصحبته على الشاطىء وهما يتناقشان فى الموضوع وفى التكاليف ، وانتشر الحماس كله فى جو المنزل ..

مدام « شانتو » فقط هى التى استبد بها الغضب حين سمعت بهذا الامر . وقد دهش « لازار » من موقفها ، وامتلأت نفسه بالحيرة والعجب . واعربت الام قائلة انه ما كان ينبغى ان يلجأ الى البقية الضئيلة من ثروة الفتاة ، وأن والد « لويز » ما كان ليتردد فى اقراضة هذا المبلغ لو انه لجأ اليه . بل ان « لويز » نفسها ـ بدوطتها البالغة مائتى الف فرنك ـ ما كانت لترفض اقراضه هذا

المبلغ لو أراد . وكانت الام لاتكف فى الآونة الاخيرة عن الايمـــاء فى حديثها الى المائتى ألف فرنك التى تتكون منها « دوطة » لويز ..

ووقف « شانتو » الى جانب زوجته ، وأحست « بولين » بالاسى وهى ترى انها كلما بذلت من مالها فى سبيل الاسرة ، كان نصيبها من الحب والتقدير أقل .. بل لقد أخذت تشعر فى الايام الاخـيرة بلون من النفور من جانب مدام « شانتو » وكأنما هى قد اعتادت ان تسىء اليهم كلما بذلت لهم من مالها وحنانها وحبها ..

أما الدكتور « كازينوف » فقد نفض يديه من المسئولية كلها حين علم بموضوع الاثنى عشر ألف فرنك ، وقال للفتاة على انفراد :

ـ يا طفلتى العـزيزة ، اننى لا أريد أن أكون شريكا فى عملية هذه السرقة العلنية وارجوك ان تمتنعى عن استشارتى بعد اليـوم فى كيفية انفاق اموالك ، وعليك ان تفعلى مايحلو لك ، لاننى لااستطيع أن أرفض لك طلبا واملأ قلبك البرىء بالحزن !

وتأثرت « بولين » من كلمات الطبيب ، وقالت له فى مودة :

ـ شكرا لك ياعمى العزيز .. ولكن اليس هذا ماينبغى ان نفعله؟ .. ماقيمة المال طالما نحن ننفقه فيما يجلب لنا السعادة جميعا ؟!

فأمسك بيديها بين يديه وقال :

ـ نعم .. نعم .. ان الانسان يدفع ثمن سعادته ، وفى أحيـان أخرى يدفع ثمن شقائه .. أرجو لك التوفيق ..

ودفعت « بولين » الثمن غاليا من أجل أيام قليلة من السعادة .. ذلك أن المشروع عند التنفيذ كان كفيلا بنشر جو من السعادة على البيت كله ، لان « لازار » كان يدخل ويخرج وهو يكاد يرقص من فرط الابتهاج .. لقد وجد أخيرا طريقه نحو الثراء ! لماذا لايتخـذ من هـذه الحواجز البحرية عملا يحترفه على طول الشـواطىء ؟ الم يضع هو التصميمات التى تجعل هذه الحواجز بسيطة قليلة النفقات ؟.. أليس من حقه أن يربح بضعة الاف من الفرنكات فى كل مشروع ؟

ولكنه أفاق من أحلامه على ضحكات السخرية التى أطلقها أهالى البلدة .. فرغم أن ذلك المشروع كان لصالحهم ، الا انه كبر عليهم أن ينجح هذا « البرجوازى » اللعين فى ترويض البحر وكبح جماحه .

فلما سخرت الامواج ـ فى المد الربيعى الرهيب التالى ـ من حواجزه وحطمت الجانب الاكبر منها ، هلل الاهالى شماتة واخذوا يعرضون بـ « لازار » فى غدوه ورواحه

وعاش الشاب أسابيع أخرى فى حالة من اليأس وهو ساخط على كل شيء .. ولكنه لم يلبث أن بدأ يفيق من يأسه عندما أقبلت «لويز» فى الصيف التالى لتقضى مع الاسرة شهرا ..!



الفصـــل الثامن

غرام جديد ..!

عقب فشل مشروع الحواجز البحرية ببضعة أسابيـــع ، أصيب العجوز «شانتو» بنوبة عنيفة من آلام النقرس جعلته يملأ جو البيت بالصياح والتوجع ، مما حدا ب « بولين » الى أن تسجن نفسها معه أكثر من أسبوعين ، لرعايته والعناية به ، ومحاولة التخفيف عنه

وكانت «لويز» قد وصلت فى اليوم التالى من نوبة النقرس .. ولما كانت بطبيعتها المدللة المرفهة ، لا تطيق أن تبقى فى جو مشحون بالآلام والتوجع ، فقد أخذت تقضى معظم أوقاتهـــــا خارج البيت مع « لازار »

وأمضى الاثنان أياما جميلة .. وقد دهش «لازار» فى أول الامرمن تصرفات هذه الرفيقة الجديدة .. كانت تختلف كثيرا عن « بولين »..

فهى مثلا لا تتردد فى الصراخ كلما لمس قدمها حيوان الكابوريا عـــلى الشاطىء ، وقد بلغ من خوفها من الماء أنها كانت تجزع من القفــز فوق احدى الحفر المائية الـكثيرة على الشاطىء . وكانت تتمســك دائما بمظلتها ، وتغطى يديها وذراعيها بقفازات طويلة حتى لاتعرض أى جزء من جسمها الابيض الرقيق للعوامل الجوية

وبعد أن أفاق من دهشته ، بدأ ينجذب نحوها بسبب تصرفاتها الرقيقة التى تنم عن الضعف الانثوى ، وبسبب عطر الهليـــوتروب الذى كان ينفذ الى أنفه ، ثم الى قلبه ، بعد ان يمر برأسه فيديرها !

انه الآن لايلعب مع أخت له ، كما كان يشـــــعر نحو « بولين » وانما هو ينعم بصحبة فتاة رقيقة جميلة ناضجة تمتزج رائحة الانوثة فيها مع العطر المنساب من أردانها .. بل ان قلبه كان يزداد خفقانا

كلما حرك الهواء ذيل فستانها ، وكشـف عن جانب من الجسـد المثير المستدير ..

ورغم أنها كانت ـ فى نظره ـ اقل جمالا من « بولين» واكبر سنا بعام ونصف عام ، وأقل نضارة .. الا أن تصرفاتها الانثوية ، ورقة جسمها ، ونظراتها المليئة بالوعود والاستشهاد ، جعلته يشعر أن أمامه ثمرة حلوة مغرية تدعوه الى قطفها ..

وهكذا بدأت مشاعره التى كانت تقوم ـ فى أول الامر ـ على أساس من الصداقة والزمالة ، تتحول الى مشاعر أساسها الرغبـة الجنسية ..

ولـما استطاعت « بولين » أن تتحرر قليلا من سجنها معالعجوز المريض ، عادت الى الخروج مع «لازار» و «لويز» .. ولكنها لم تلبث أن شعرت منذ الوهلة الاولى أن ثمة جوا جديدا بين الاثنين .. هنا ضحكات متبادلة ، ونظرات لها دلالاتها ، وهمسات بعيدة عن اذنيها . وقد حاولت فى أول الامر أن تتظاهر بعدم الاهتمام ، ولكنها لمتستطع أن تمنع نفسها من الشعور بالالم الخفى كلما خرجت معهما ، ورأت هذه المظاهر تتكرر المرة بعد الاخرى

وقررت أن تعتذر عن مصاحبتهما خارج البيت كلما استطاعت أن تجد العذر المناسب . ولم تلبث الهوة بينها وبين «لازار» ان ازدادت اتساعا كلما ثارت غاضبة لاقل سبب ، وكلما بدت عابسـة مكتئبة السمات بلا سبب !

وظلت «بولين» تجتر آلامها فى صمت ، حتى اذا كانت ذات يومٍمع «لازار» و«لويز»على الشاطىء ، اذ بها تسقط اعياء .. واذ بـ«لازار» يسرع اليها فى جزع ، واذ هو يلمس جبينها فيلسعه من فرط الحرارة المندلعة فى جسمها . وسرعان ما حملها بين يديه ـ وهى فى شـبه غيبوبة ـ وانطلق يعدو بها الى البيت دون أن يحفل بأمر «لويز» التى كانت تحاول اللحاق به عبثا ، وكأنما نسى أمرها تماما .. !

وفحص الدكتور « كازينوف » « بولين » فى اليوم نفسه ، وأعلن انها مصابة بخراج فى حلقها ، وأن حياتها أصبحت معلقة بخيط واه .. لان الخراج اذا لم يضمر فى الوقت المناسب ، فسـوف يؤدى الى موتها اختناقا ..

وبقى «لازار» بجانب «بولين» ثلاثة اسابيع يحارب معها الموت ساعة بعد ساعة .. وكان يجلس بجوار فراشها الساعات الطوال ، يرقبها وهى تكتم آلامها ، وينظر الى حبات العرق المتفصدة من جبينها من فرط ألمها ، ويمسح على جبينها بيد اكثر حنانا من يد الام ، ويسقيها الدواء بيده ، ويحملها بين ذراعيه الى المقعد الوثير حتى يقوم بتغيير أغطية ومفارش السرير .. وكلما شعر بالعجز عن تخفيف آلامها ، راح يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يشد شعره ، ويحدث نفسه كأنما فقد عقله تماما ..

وكان الدكتور «كازينوف» يحضر كل يوم لفحص المريضة ، وفى بعض الاحيان كان يحضر مرتين فى اليوم .. ولقد اضطر ذات مرة الى قضاء الليل كله بجانبها ، وهى تلهث فى سبيل التنفس بعد ان تضخم الخراج وكاد يسد القصبة الهوائية . وكاد «لازار» ان يسقط مغشيا عليه حين أغمى على «بولين» من فرط الالم ، ولكن الازمة مرت بسلام .. وبدأ الخراج فى صباح اليوم التالى فى الضمور تدريجيا ..

ودخلت «بولين» فى دور النقاهة ، وبدات تدرك ما يدور حولها بعد أن كانت فى شبه ذهول دائم ، وكان «لازار» قد بدأ من ناحيته يشعر بالملل بعد أن اطمأن على نجاة «بولين» من الموت ، وبعد ان اخذ يجلس الساعات الطوال بجوار فراشها دون أن يفعل شيئا . وفى ذات يوم ، قالت له « بولين » باسمة عندما رأته يكتم تثاؤبه :

ـ « لازار » يحسن ان تخرج وتتمشى قليلا .. وفى مقدور « فيرونيكا » أن تحل محلك ريثما تعود ..

ولكنه رفض بشدة ، وقال انه لا يستطيع أن يتخلى عنها حتى يطمئن الى استردادها للصحة تماما .. ولكنه لم يلبث ان هدأ قليلا عندما راحت هى تشرح له الامر برفق :

ـ انك لن تتخلى عنى بخروجك .. بل على العكس ، ان سيرك فى الهواء الطلق سوف يمدك بالقوة التى تجعلك أقدر على رعايتى .. وهل يرضيك أن تسقط أنت فى النهاية مريضا ؟

وكانت « لويز » فى تلك الفترة قد عادت للاقامة مع الاسرة بضعة أسابيع ، وكانت مدام «شانتو» قد بدأت معها مناورة خفية تسعى بها الى تحقيق هدف خاص .. ومن ثم راحت تتغنى أمامها بمواهب

ابنها « لازار » ووسامته ، وبشبابه ، وبأخلاصه البادى فى رعايتـــه لـ «بولين» ، وبالمستقبل اللامع الذى ينتظره .. وقد أسرفت فى ذلك كله اسرافا جعل رأس الفتاة يدور ، وافكارها لا تتحول عن «لازار»

وفيما كانت «بولين» تحاول اقناع «لازار» بالخروج والتريض قليلا ، اقبلت «لويز» لتسأل عنها ، وانتهزت «بولين» هذه الفرصة وقالت لها :

ــ أرجوك يا «لويز» .. دعيه يخرج معك ..

وحاول «لازار» أن يرفض ، ولكن «لويز» قالت ضاحكة :

ــ هل يرضيك ان اذهب بمفردى الى آل كونين الاوغاد .. لقد كنت فى الطريق اليهم لشراء كمية من الجنبرى . ولكننى أخشى أن اتعرض لسلاطة السنتهم ..

وقالت « بولين » :

ــ أجل يا «لازار» .. لا ينبغى أن تدع «لويز» تذهب بمفردها الى آل « كونين » .. وهذه فرصة مناسبة للتريض قليلا ..

ووافق «لازار» أخيرا ، وخرج مع «لويز» .. وعندئذ بدت على وجه بولين مسحة من القلق ، ومالت برأسها لتسمع وقع خطواتهما، ورنين ضحكاتهما وهما يهبطان الى الطابق الارضى

ورغم هذا الشعور بالقلق والغيرة ، كانت تستدعى «لويز» بين الحين والآخر وتقول لها فى رجاء :

ــ أرجوك يا «لويز» أن تعنى ب «لازار» .. خففى عنه وجنبيه الشعور بالملل .. انه فى أشد الحاجة الى من يريح اعصابه ، اذهبى معه وامضيا اليوم كله فى الخارج ..

وكانت «بولين» تجلس بمفردها فى غرفتها ــ بعد انصراف «لازار» و « لويز » ــ وتشرد بنظـــراتها وافكارها وكأنها تتبعهما ، وتعيش بخيالاتها معهما ، وتحاول جاهدة ان تنتصر على نوازع الغـــيرة فى نفسها ..

ومرت أيام النقاهة بسرعة ، واستطاعت « بولين » أخيرا ان تغادر غرفتها ، وتختلط بأفراد الاسرة فى الطابق الاول .. ولكنها فوجئت بازدياد نفور مدام « شانتو » منها ، ومحاولاتها الدائمة لاغضابها ، أو السخرية من حديثها ، أو التعريض الخفى بها .. !

وعبثا حاولت «بولين» أن تخفف من ثائرة عمتها ضدها ، أو أن تسترضيها بأية طريقة .. ومن ثم لاذت بالصبر وقـــوة الاحتمال ، ووجدت فى تمريضها لعمها العجوز « شانتو » ملاذا يخفف من آلامها النفسية .. وكان «شانتو» قد تعرض لنوبة عنيفة من آلام النقرس عقب شفاء «بولين» ، وأصر على ألا يمرضه أحد غيرها ، قائلا ان لمسات يديها ، بل ونظراتها الحانية العطوف ، بمثابة بلسم لآلامه ..

أما «لويز» و «لازار» فكانا يلقيان نظرة عابرة على الرجل المريض فى غرفته ، ثم ينطلقان الى الخارج حيث يقضيان طيلة اليوم فى اللعب والتجوال والضحك . وكان «لازار» من جانبه قـد وجد فى «لويز» واحة يلتمس فيها السعادة التى طالما هربت من اصابعه

وقد ظلت « لويز » فترة طـويلة وهى ترى العلاقة بينهـــا وبين «لازار» لاتعدو محاولة اغراء من ناحيتها ، واستجابة للاغــراء من ناحية « لازار » .. وكان هـــذا الشعور يرضى غريزتها الانثـــوية المتفتحة ، ويملأ نفسها بالرضى لانتصارها ـ عاطفيا ـ على «بولين» !

وكانت « فيرونيكا » تلاحظ هذا كله دون ان تستطيع القيام بشىء الا الدمدمة والتحدث الى نفسها فى المطبخ عن العقوق والجحود والخيانة ومقابلة الاحسان بالاساءة

وفى ذات يوم ، عجزت مدام «شانتو» عن احتمال صيحات زوجها ، فقالت لـ «بولين» :

ـ اننى صاعدة الى غرفتى لان اعصابى تكاد ان تنهار !

وظلت « بولين » بجوار العجوز المريض تواسيه وتخفف عنه ، ولكن آلامه أخذت تزداد حتى أوشك المسكين ان يغمى عليه . ولما لم تستطع «بولين» أن تحتمل أكثر مما فعلت ، غادرت الغرفة مسرعة ، تاركة بابها مفتوحا ، وذهبت الى «فيرونيكا» فى المطبخ وقالت لها :

ـ يجب أن نفعل شيئا للمسكين يا «فيرونيكا» .. فلنحاول أن نستعمل معه المكمدات الباردة . ان الدكتور «كازينوف» يقول انها خطرة ، ولكن هل نتركه يتعذب بهذا الشكل .. أرجوك ان تعطينى بعض قطع القماش النظيفة

فقالت « فيرونيكا » فى لهجة الانسان الذى فقد تماما السيطرة على أعصابه :

ـ قطع قماش ؟ .. لم يبق الا أن أمزق ملابسى اربا .. لقد ذهبت الآن لاطلب قطعة قماش لتجفيف الاوعية ، فأمرتنى السيدة الا أزعجها ..

فقالت «بولين» :

ـ اذهبى واطلبى ماتريدين من «لازار» ..

فصاحت «فيرونيكا» :

ـ « لازار » ؟ .. وهل تظنين أن «لازار» متفرغ لطلب كهذا ؟ انه غارق الى أذنيه فى القبلات مع تلك الفتاة «لويز» ..

فشحب وجه «بولين» وقالت :

ـ ماذا تعنين يا « فيرونيكا » ؟ !

وادركت « فيرونيكا » هول ما خرجت به .. وحاولت ان تغتصب ابتسامة وتتظاهر بأنها كانت تمزح معها .. ولكن « بولين » استدارت واندفعت من المطبخ وهى تكاد تختنق من فرط الغضب . ولما صعدت الى الطابق الثانى ، فوجئت برؤية مدام « شانتو » واقفة فى مدخله ، وكأنها تحرس شيئا معينا وحاولت السيدة أن تمنع الفتاة من الصعود الى غرفة « لازار » ولكن « بولين » تخلصت منها بقوة وحزم ، واندفعت صاعدة الى الغرفة الكبيرة التى طالما شهدت أحلى ايامها مع « لازار » .. وفتحت الباب بقوة وبغير استئذان ثم وقفت فى المدخل وقد تسمرت قدماها ، اذ شاهدت « لازار » مستغرقا فى تبادل القبل مع « لويز » وهو يضمها الى صدره بقوة ، ويحاول أن ينضو عنها ثوبها ..!



الفصل التاسع

انهيار قلب

وقف الثلاثة متسمرين فى أماكنهم يتبادلون نظرات مختلفة المعانى .. فبينما كانت « بولين » تكاد تفقد رشدها من فرط الثورة والغيرة والغضب ، كان « لازار » و « لويز » يتمنيـــان لو انشقت الارض وابتلعتهما من فرط الخجل والارتباك

وصاحت « بولين » أخيرا :

ـ أيتها الفاجرة .. أيتها الفاجرة !

وكانت ثورة « بولين » منصبة على غدر « لويز » وخيانتها .. كانت تعلم تماما أنها هى السبب فى تطور الامور الى هذا الحد .. أما « لازار » فقد نظرت اليه فى احتقار ، وهى تعلم مبلغ ماهو عليه من ضعف وتخاذل .. وأحست برغبة قوية فى صفع « لويز » وهى تتقدم نحوها هادرة :

ـ أخبرينى لماذا فعلت هذا ؟ .. ماهو هدفك من هذه الخيانة ؟ .. هل يليق بك أن تقابلى ثقتى فيك بمثل هذا الغدر الرخيص ؟ !

فتلعثمت « لويز » وقالت :

ـ لقد أرغمنى « لازار » على هذا .. لقد أمسك بى رغما عنى حتى كاد يكسر معصمى !

فصاحت « بولين » قائلة فى اشمئزاز :

ـ هو ؟.. ان الدموع لتملأ عينيه اذ انت دفعت به بعيدا عنك .. انه اضعف من أن يقاوم اغراء امرأة أو صدها له ..

ثم أمسكت بكتفى الفتاة فى عنف ، وأردفت قائلة وهى تهزها :

ـ اسمعى .. اننى لم أعد أثق فيك بعد اليوم .. أتفهمين ؟ .. عليك ان تخرجى الآن ولا تعودى الى هذا البيت مرة اخرى ..

ثم دفعت بها نحو الباب .. وتعثرت « لويز » قليلا حتى كادت ان تسقط ، ولكنها تمالكت نفسها ، واندفعت هاربة الى غرفتها فى الطابق الثانى ..

وقالت « بولين » فى عصبية عنيفة ، وهى تطـارد « لويز » على السلم :

ـ اذهبى .. اذهبى .. اجمعى ملابسك .. وحـذار أن أرى وجهك هنا مرة اخرى ..

ولما أوشكت « بولين » أن تقتحم غرفة « لويز » وهى فى أشـد حالات ثورتها النفسية ، امسكت بها مدام « شانتو » وقالت لها وهى تتظاهر بأنها لا تعرف شيئا :

ـ ماذا تعنين يا « بولين » ؟ .. هل فقدت عقلك يا عزيزتى ؟ !

ولكن « بولين » اندفعت الى غرفة « لويز » وكأنها لم تسمع شيئا وصاحت مرددة :

ـ هلم الآن .. اجمعى ملابسك حالا واخرجى ..

وبلغ من ارتباك « لويز » واضطرابها العنيف أنها لم تجد ما ترد به على « بولين » ومن ثم راحت تجمع ملابسها من الخزانة والادراج فى صمت ، ودموعها تنساب بهدوء على وجهها

وقالت مدام « شانتو » وهى تفقـد السـيطرة على اعصـابها تدريجيا :

ـ انتظرى يا « لويز » ! . اننى هنا ربة البيت ، والآمرة فيه .. فمن ذا يجرؤ على اصدار اوامره بطرد ضيوفى منه !.. ان هذا شىء لا يحتمل .

وصاحت « بولين » بثورة متزايدة :

ـ ألم تعرفى ؟ .. الم تسمعى .. ! لقد ضبطتها مع « لازار » تبادله القبلات فى غرفته !

فهزت مدام « شانتو » كتفيها ، وأعربت عن عدائها لـ « بولين » بقولها فى غير مبالاة :

ـ وماذا فى هذا ؟ .. ان الامر لا يعدو أن يكون مداعبة بريئة بين صديقين نشآ معا .. وعندما كنت مريضة ، وكان هو يقضى معك الايام والليالى ، هل سألكما أحد عما كان يجرى بينكما ؟ !

وهدات ثورة الفتاة فى الحال ، ووقفت بلاحراك وقد شحب وجهها ازاء هذا الشك .. اذن فقد اصبحت هى المتهمة المذنبة بعد أنكانت صاحبة الحق ؟ .. وأخيرا قالت بهدوء :

ـ ماذا تعنين يا عمتى ؟.. اذا كنت تعتقدين هذا ، فكيف سمحت به فى بيتك ؟ !

فردت المراة بكل ثبات :

ـ وماذا كان فى وسعى أن أفعل ؟ .. انك بالغة الرشد ، واذا كنت تعتقدين أن طهارتك تمنعك من ارتكاب اية خطيئة مع « لازار » فلست أنت فقط الطاهرة البريئة ، ان هناك فتيات لاتقل الواحدة منهن عنك فى هذا الشأن . وعلى هذا ، ليس هناك مايدعو الى كل هذه الثورة ، وارجوك ان تدعى الاثنين وشأنهما ..

وتوقفت « بولين » برهة وهى لاتدرى ماذا يمكن أن تقول ، وأخيرا تحركت فى طريقها الى غرفتها بالطابق الاعلى ، وهى تقول بلهجة قاطعة :

ـ حسنا جدا .. لسوف أخرج أنا من البيت ..

وخيم السكون الثقيل على البيت .. ولم يكن يقطعه الا صياح العجوز « شانتو » بين الحين والآخر ، وكأنه صيحات حيوان يحتضر .. وقد ظلت الصيحات ترتفع وتتزايد حتى ابتلعت كل صوت آخر!

وشعرت مدام « شانتو » بالندم الشديد على تهورها فى الحديث مع « بولين » وأدركت انها ارتكبت خطأ لن يسهل اصلاحه ، وفزعت فى أعماق نفسها من مجرد التفكير فى أن « بولين » قد تنفذ تهديدها !

انها فتاة عنيدة .. ومن الممكن جدا أن تركب رأسها وتخرج من البيت فاذا حدث ، ماذا سيقول الناس عنها وعن زوجها ؟ اية شائعات سوف تملأ المنطقة عندما تخرج الفتاة وتحدث الناس بكل ماحدث .. ولعلها تلوذ ببيت الدكتور « كازينوف » .. فأية فضيحة تنتظر الاسرة عندئذ ؟ .. وكيف يكون الحال اذا عرف الناس أن الاسرة بعثرت أكثر من نصف ثروة الفتاة التى لجأت اليها ووضعت نفسها وثروتها بين أيديها ؟ !

ونظرت الى « لويز » ثم قالت وقد اندفعت نيران غضبها مرة أخرى :

ــ كفى بكاء يا عزيزتى « لويز » هل رأيت المأزق الذى نحن فيه بسبب طيشها وسوء تصرفاتها ؟ .. هكذا الحال دائما ، فمنذ أن جاءت للاقامة معنا ونحن لا نعرف للراحة مذاقا

وقالت « لويز » أخيرا وهى تتخلص من يدى مدام « شانتو » :

ــ أرجوك .. أرجوك .. دعينى أنصرف .. لسوف أكون شقية جدا لو بقيت .. لقد أخطأت حقا .. ما كان ينبغى أن يحدث هذا.. يجب أن أمضى فورا ..

ــ لا .. لا .. ليس الآن .. انتظرى هذه الليلة فقط . لسوف أرسل لأبيك لكى يأتى ويصحبك ، ولن يقول له أحد شيئا بطبيعة الحال .. انتظرى لحظة ، لسوف أصعد وأرى هل هى تجمع ملابسها حقا ..؟

وتسللت مدام « شانتو » الى باب غرفة « بولين » ، وأرهفت السمع .. ولم تلبث أن سمعت وقع خطواتها وهى تروح وتجىء فى الغرفة ، وصرير الادراج وهى تفتح وتغلق بعنف .. وفكرت لحظة فى أن تدخل وتهدىء ثائرة « بولين » وأن تزيل الخلاف بالدموع والصفح .. ولكنها خشيت أن تتلعثم وتشعر بالذلة والامتهان أمامها ، فانصرفت عن الباب وهى تحس بمزيد من الحقد عليها !

ومضت هذه المرة الى المطبخ حيث كانت « فيرونيكا » تنظف الاوعية النحاسية ، وتدمدم لنفسها بغضب كالمعتاد ، وقالت مدام « شانتو » لها :

ــ هل سمعت بما فعلته الآنسة « بولين » ؟

وأطرقت « فيرونيكا » برأسها على الاوعية ، متظاهرة بالانهماك فى عملها .. ومن ثم استطردت مدام « شانتو » قائلة :

ــ ان الحياة معها أصبحت لا تطاق .. انها لا تريد حتى أن تتفاهم معى .. تصورى انها تجمع ملابسها الآن لكى تغادر البيت ، ما رأيك لو صعدت اليها لمحاولة التفاهم معها يا « فيرونيكا » ؟

ولما ظلت « فيرونيكا » سادرة فى صمتها ، قالت مدام « شانتو » :

ــ ماذا بك ؟ .. هل أصبت بالصمم ؟ ! .. لماذا لا تجيبين ؟ !

وفجأة قالت « فيرونيكا » بصوت ينم عن الغضب المكبوت :

ــ اذا كنت لا أجيب ، فلأنى لا أريد أن أجيب .. أما الآنسة

« بولين » فان لها الحق كله فى الخروج من البيت ، ولو كنت فى مكانها لما فعلت غير هذا .. بل لغادرت هذا البيت منذ أمد بعيد

فحملقت مدام « شانتو » فى وجهها ، وقد فغرت فاها من فرط الدهشة والاستياء .. أما « فيرونيكا » فقد استطردت تقول :

ـ اننى لست مخلوقة من جماد يا سيدتى .. وأصارحك القول ، اننى لم أكن أحمل للآنسة « بولين » أى حب يوم جاءت للاقامة معنا .. ولو كان الامر ممكنا لقذفت بها الى البحر ، ولكن بعد أن رأيت كل ما حدث لها ولأموالها ، فانى لا أتمالك نفسى الآن من العطف عليها ، والثورة من أجلها .. بل انى أتمنى لو استطعت أن أضربكم جميعا .. نعم .. يمكنك ان تطردينى ، فلن يهمنى هذا بعد . حسبى ان اجعلها تعرف حقيقة شعوركم نحوها .. حسبى أن أجعلها تدرك الى أى حد قابلتم احسانها بالاساءة .. !

فقالت مدام « شانتو » وقد ازداد غضبها من هذا الموقف الجديد :

ـ أرجوك أن تكفى عنا لسانك أيتها المجنونة ..

ـ لا .. لن أكف عن الحديث .. لقد زاد الامر عن حدوده .. أتسمعين .. اننى أكاد أختنق من فرط الغضب والحنق منذ سنوات ألم يكفكم ما أخذتموه من أموالها .. هل تصرون على أن تقطعوها أربا ! اننى اعرف كل شىء اعرف كيف كنتم تدبرون المؤامرات ضدها ، ولكن المسيو « لازار » قد يكون بريئا ، وان كان هـذا لا يعفيه من المسئولية .. انه لن يتردد فى أن يطعنها فى عواطفها وفى قلبها اذا وجد فى هذا فائدة له . انه يعيش لنفسه ، ولا يهمه الا ان يعيش على حساب غيره .. !

وبذلت مدام « شانتو » جهدها للسيطرة على نفسها والتحكم فى أعصابها ، وقالت :

ـ اذن فلن تصعدى وتتحدثى اليها ؟.. ان هذا فى مصلحتها ، إن كنت تريدين هذه المصلحة

وصمتت « فيرونيكا » برهة .. ثم قالت فى يأس :

ـ حسنا .. لسوف أصعد اليها .. يجب أن أتصرف بعقل وحكمة .. ان الاستسلام للغضب لن يجدى شيئا ..

ونظفت يديها بهدوء مصطنع .. هذا بينما كانت صيحات العجوز

« شـــانتو » تتردد معلنة عن آلامه العنيفة . وخطرت ببال مدام « شانتو » فكرة جعلتها تقول لـ « فيرونيكا » عندما همت بالصعود :

ـ قولى لها انه ليس من الواجب أن تترك البيت وعمها « شانتو» يعانى هذه الآلام المبرحة ..

فقالت « فيرونيكا » وهى تهز كتفيها :

ـ ان سيدى قد اعتاد على هذا الصياح سواء كان يعانى نوبة آلام أم لا ..

وصعدت « فيرونيكا » .. ولكنها ما كادت تصل الى الطابق الثانى حتى رأت « بولين » هابطة تحمل صرة ملابســها الضرورية ، تاركة بقية الملابس الى «ماليفوار» ـ صاحب مركبة السفر ـ ليحمل الباقى اليها فى اليوم التالى . وكان وجهها الشاحب ينم عن الاصرار والعناد .. ومن ثم كانت تقول لـ « فيرونيكا » ردا على توسلاتها :

ـ لا .. اما أن تخرج هى من المنزل ، أو أخرج أنا ..

ولما أعلنت « فيرونيكا » لمدام « شانتو » هذا الاصرار ، لم يسع هذه الا أن تستسلم لرغبة « بولين » ، وقررت أن تصحب « لويز » الى خالتها مدام « ليونيه » فى أرومانش ، حيث تزعم لها ان « لويز» لم تستطع البقاء مع أسرة « شانتو » بسبب ازدياد حالة العجـوز سوءا ، وأنها سوف تعود لتأخذها بمجرد أن تتحسن حالته

ولما صحب لازار والدته و « لويز » الى المركبة التى ستحملهما الى أرومانش ، قالت « فيرونيكا » بصوت مرتفع لـ « بولين » :

ـ انزلى الآن يا آنسة « بولين » .. لقد ذهبت « لويز » ..

وخيم الصمت الثقيـل على البيت ، ولم يكن يقطعه كالمعتـاد الا صيحات العجوز « شانتو » .. وفيما كانت «بولين» تهبط الدرجات الاخيرة الى الصالة ، عاد « لازار » بعـد أن ركبت أمه و « لويز » المركبة ، ومن ثم وقف أمامها وجها لوجه برهة وجيزة . وكانت هى تنتفض من فرط الغضب والثورة ، وكان هو يتمنى لو استطاع أن يسألها الصفح والغفران ، ولكن دموعه طفرت من عينيه ، وعجزلسانه عن النطق بكلمة .. فاندفع صاعدا الى غرفته منكس الراس مفعم النفس بالندم والخجل ..

وبوجه شاحب ، وفم مغلق ، دخلت « بولين » الى غرفة عمها ،

لتؤدى واجبها نحوه ..

وعادت مدام « شانتو » فى مساء اليوم نفسه ، قبل موعد العشاء بلحظات .. واستدعت « فيرونيكا » لتساعدها على خلع حذائها لأنها كانت تشعر بألم شديد فى قدمها اليسرى ..

وقالت الخادم وهى تنظر الى القدم :

ـ لا عجب أن تشعرى بالالم فيها ، فانها منتفخة قليلا ..

ونظر « لازار » الذى كان قد أقبل فى تلك اللحظة ، الى قدم والدته وقال :

ـ لا شك انك سرت طويلا على قدميك اليوم يا أماه ..

ولكن مدام « شانتو » قالت انها فى الواقع لم تمش الا قليلا ، وان هذا الانتفاخ لابد قد تسبب من ضيق الحذاء ، لأنها بدأت تشعر بزوال الالم بمجرد أن خلعته عن قدمها ..

وفى اليوم التالى ، زال كل أثر لانتفاخ قدميها ..

***

ومر أسبوع لم يحاول أحد خلاله أن يشير الى « لويز » أو الى ما حدث من بعيد أو من قريب ، بل لقد حاول الجميع أن يستأنفوا الحياة وكأنما لم يحدث شيء يعكر صفوها ..

وكان « لازار » فى أول الامر ، يشعر بهول ماارتكبه فى حق «بولين» وكان كلما فكر فى طهارتها ، واستقامتها ، وتمسكها بالقيم والمبادىء المثالية ، يزداد شعوره بالخجل والندم والغضب . وكان غضبه على نفسه يزداد يوما بعد يوم ، كلما وجد أنه عاجز عن تبرير أخطائه ، وطلب الصفح والغفران منها . كان يتساءل دائما : لماذا لا يشرح لها الامر كله بصراحة ، ويطلب منها أن تصفح عنه ؟ لماذا لا يقول لها ان الامر كله لا يعدو نزوة طارئة ، وأن عواطفه الحقيقية العميقة لا تترتز الا فيها ؟ .. ولكنه كان دائما يشعر بالارتباك وبالخوف من أن يذل نفسه أمام « بولين » !

وكان هناك احساس آخر وراء عجزه عن طلب الصفح من «بولين» .. كان يشعر انه سوف يخدعها لو قال لها انه لايفكر فى « لويز » وأن الامر كله نزوة عابرة حقا .. ذلك أنه كان يشعر أن عواطفه نحو « لويز » لا تزال مشبوبة ، وأن اشتهاءه لها لا يزال قويا ، بل انه

كثيرا ما كان يذهب الى أرومانش ليلا ويطوف بالبيت الذى تقيم به « لويز » مع خالتها دون أن يجد الشجاعة الكافية للدخول !

والواقع أنه كان حائرا فى عواطفه .. كان يشعر أنه يحب «بولين» من أعماق قلبه ، ولكنه كان فى الوقت نفسه ، يشتهى لويز .. كان طيفها دائما امامه ، يحجب الماضى ، ويضع امام المستقبل ستارا كثيفا

أما « بولين » فقد كانت تنتظر منه أن يطلب صفحها .. وكانت فى أول الامر قد آلت على نفسها ألا تغفر له اطلاقا ، ولكنها ـ مع مرور الايام ـ بدأت تشعر بالالم لأنه لم يطلب مغفرتها . وكانت تتساءل دائما : لماذا لم يعد يتحدث معها بنفس الالفة التى اعتادت عليها ؟ لماذا يحاول دائما أن يتجنبها ؟ لماذا يقضى معظم أوقاته خارج البيت ؟ .. انها على استعداد لأن تنصت اليه ، وتنسى كل شىء اذا هو أظهر الشىء القليل من الندم والتوبة .. !

ولكن الايام ظلت تنصرم ، وأهل البيت جميعا يعيشون على أعصابهم .. انهم يتبادلون الاحاديث العادية ، ويجتمعون على مائدة الطعام ثلاث مرات فى اليوم ، بل ويتبادلون القبلات السريعة عندما يفترقون للنوم .. ولكن وراء هذا كله كان ثمة احساس بالبؤس والشقاء .. فـ « لازار » يدرك أنه أخطأ ، وأنه يتمنى لو أصلح هذا الخطأ ، وأنه لا يزال يحب « بولين » وان كان لا يزال أيضا يشتهى « لويز » و « بولين » تزداد ألما وعذابا كلما استمر « لازار » على صمته واجتنابه لها .. ومدام « شانتو » تكاد تنشق من فرط الحنق لأن مناوراتها للظفر بـ « لويز » وبثروتها لابنها « لازار » قد باءت بالفشل . أما العجوز « شانتو » فكان مشغولا عن كل شىء بآلام النقرس ، وبالاشتهاء الدائم الى اطايب الطعام والشراب . أما « فيرونيكا » فكانت جدران المطبخ تهتز كالمعتاد ازاء غمغمتها ودمدمتها وزفرات غضبها الابدى..

وفى ذات يوم ، نسى الجميع هذا كله أمام سقوط مدام « شانتو » مريضة بهبوط مفاجىء بالقلب .. ورغم كل ما بذله الدكتور « كازينوف » لعلاجها وانقاذها ، ورغم كل ما بذلته « بولين » فى تمريضها ، ورغم ، كل ما سكبه « لازار » من دموع من أجلها ، فقد ظلت حالة المسكينة تزداد سوءا حتى لفظت أنفاسها بين أيدى «بولين» و « فيرونيكا » ذات مساء ..

وفى صباح اليوم التــالى ، جلس العجوز على مقعــده فى الشرفة الكبيرة ، يشيع بنظراته المبللة بالدموع تابوت زوجته وهو يحمل من الكنيسة الى العربة التى ستحمل جثمانها الى مدافن الاسرة فى مدينة « كان » ..

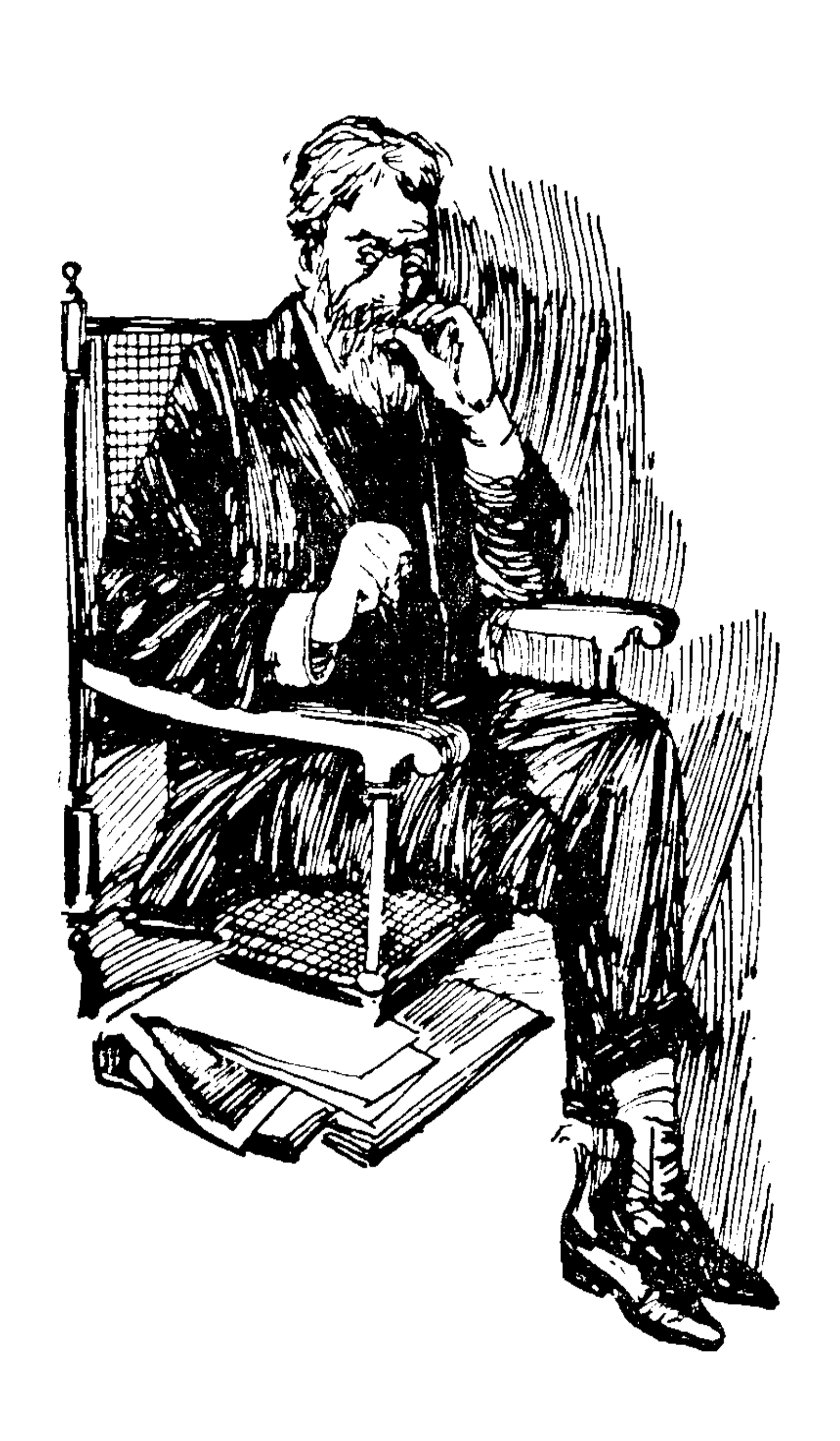
وقال العجوز بصوت واهن لـ « فيرونيكا » الواقفة بجانبه :

ـ ألن تذهبى معهم يا « فيرونيكا » ؟

فقالت المرأة وهى تمسح دموعها بمنديلها :

ـ لا .. لقد طلبوا منى أن أبقى معك ..

ودقت أجراس الكنيسة .. وتحركت المركبة ، حاملة شريكة حياة العجوز « شانتو » الى مثواها الاخير ..



الفصل العاشر

مزيد من الاحسان

كان لوفاة مدام « شانتو » اثرها العميق فى نفوس بقية أفراد الاسرة .. ذلك أن خوف « لازار » من الموت .. من العدم ، ازداد حتى كاد أن يغدو مرضا مزمنا لايرجى له شفاء . وقد بلغ من تأثره انه اغلق غرفة النوم التى ماتت فيها أمه ، وأمر الا يفتحها أحد ايا كان السبب ..

وكثيرا ما كان يردد قائلا لـ « بولين » وهو فى حالة عنيفة من اليأس والحيرة :

ــ لماذا ولدنا ؟ ولماذا نعيش ؟.. وما فائدة الاستمرار فى الحياة مادام مصيرنا الموت .. العدم ..؟!

وكانت « بولين » تقول له بهدوء :

ــ لو كنت تؤمن بوجود حياة أخرى بعد الموت ، لما فزعت من الموت الى هذا الحد ، ولما رددت هذه الاسئلة .. تصور مبلغ سعادة الانسان عندما يلتقى فى الحياة الاخرى بأحبابه الذين فقدهم فى هذه الحياة ؟

وكانت « فيرونيكا » تقوم بأعمالها المنزلية وهى فى شبه ذهول وحيرة .. انها لا تكف عن الفمغمة والدمدمة كالمعتاد ، وهى لاتتردد فى الثورة فى وجه أى انسان يحاول ان يوجهها أو يعاقبها أو يبين لها خطأها .. ولكنها كانت فى الوقت نفسه تذرف الدموع كلما ورد ذكر مدام « شانتو » عرضا أثناء الحديث ، ثم تنطلق عائدة الى المطبخ بنظرات حائرة متسائلة :

ــ اذا كان الموت هو النهاية الحتمية ، فلماذا تطول أعمارنا فى هذا الشقاء ؟!

اما العجوز « شانتو » فكان يوزع حياته بين نوبات النقرس ، وبين المطالبة بنصيب أكبر من اللحم والخمر ، وبين لعب الشطرنج معالاب « هورتيير » والتمتع بأمسية سعيدة كل يوم سـبت مع الدكتور « كازينوف » والاب « هورتيير »

اما « بولين » ، فقد ظلت تعيش كالمعتاد ، تبذل من نفسها ومن جهدها ومن مالها للجميع ، محاولة ان تستمد السعادة من اسعاد الغير ، موقنة تماما ان الانسان لم يخلق فى هذه الحيـاة الا ليخفف الآلام عن غيره من الناس ، والا لينشر السعادة بين الذين يحيطون به ..!

وعلى هذا النحو ، ظلت تداوم على تقديم هباتها وجانب من مالها الى فقراء القرية ، عن طريق ابنائهم وبناتهم الذين اعتادوا ان يأتوا اليها بعد ظهر يوم السبت من كل أسبوع . ولما كانت هى المشرفةعلى ميزانية البيت بعد وفاة مدام « شانتو » فقد واجهت موقفا عصيبـا عندما وجدت ان دخل الاسرة لم يعد يزيد على ألفين وخمسمائةفرنك فى العام ، بما فى ذلك ايراد البقية القليلة من ثروتها ..

وصار همها الاساسى طيلة الاسبوع هو كيفية ادخار مبلغ من المال لتوزعه على الفقراء كالمعتاد .. هذا عدا ما كانت تصنعه لهم من جوارب صوفية وصدارى ، وما تقدمه اليهم من أدوية وعقاقير ، وما تبذله من جهود لالحاق المرضى بالمستشفيات ، واليتامى بالملاجىء ، والعاطلين بالاعمال المختلفة ..

وقد استطاعت فى النهاية ان تقنع « لازار » لـكى يشاركها في مهمة توزيع الاحسان ، عسى ان يجد فى هذا ما يخفف عنه الشعور بالسأم ، وما يحول ذهنـه عن التفكير الدائم فى المـوت .. أو العدم ..!

وهكذا كان الاثنان يجلسان فى الساعة الرابعة من مساء يومالسبت فى كل اسبوع ، حيث يستقبلان اصدقاءهما الصغار من القريـة ، ويوزعان عليهما الهبات المختلفة .. وكان هؤلاء الصغار عادة أطفالا يرمزون الى القذارة والجهالة والبؤس وسوء الطباع .. وكأنهمنباتات « شيطانية » لا يعرف احد كيف ظهرت ولا لماذا تبقى على سـطح الارض !

وفى مساء ذات سبت ، كانت السماء تمطر بغزارة ، فاضطرت « بولين » الى استقبال اصدقائها الصغار فى المطبخ ، حيث أجلسهم « لازار » صفا واحدا على دكة خشبية مستطيلة ..

ولما رأت « فيرونيكا » هذا ، قالت لـ « لازار » هامسة وفى صوت ينم عن الغضب المكبوت :

ـ ماهذا يا سيدى ؟.. أتريد الآنسة ان تجتمع بهؤلاء الشياطين الصغار هنا ؟.. اننى اخشى ان نجد بعضهم فى الحساء الليلة !!

وكانت « بولين » فى تلك اللحظة قد اقبلت ومعها كيسها الملىء بالنقود الفضية الصغيرة ، وبالادوية والعقاقير وارغفة الخبز والحلوى والجوارب الصوفية .. ولما سمعت حديث « فيرونيكا » قالت باسمة :

ـ يمكنك ان تمسحى المطبخ بعد انصرافهم يا « فيرونيكا » ... لا تنسى ان الجو ممطر جدا فى الخارج ، وليس من المعقول ان نغرقهم بالمطر ونحن نحسن اليهم !

والواقع ان الفوج الاول من الاطفال الذين دخلوا المطبخ كانوا غارقين فى مياه المطر .. كانت القطرات تتساقط من أسمالهم البالية على أرضية المطبخ وتنشر عليها القذارة والبلل ، مما ضاعف من حنق « فيرونيكا » التى كادت ان تخرج عن طورها عندما طلبت منها « بولين » ان توقد النار فى المدفأة حتى يمكن تجفيف ملابس الاطفال قليلا ..

وسرعان ما اصطف الاطفال والغلمان بالقرب من المدفأة ، وهم يركزون نظراتهم الجائعة على بقايا الاطعمة ، وعلى حزم الجزرالاصفر الموضوعة على مائدة المطبخ غير البعيدة عنهم

وقالت « فيرونيكا » وهى سادرة فى دمدمتها :

ـ اننى لا ادرى الى متى تحسنين الى غلمان بلغوا سن الرابعة عشرة ، وكان يجب عليهم ان يلتمسوا الرزق بالعمل .. انهم يا آنسة يستغلون عطفك لكى يركنوا الى التسكع بدلا من السعى فى سبيل الرزق ..

ولم يسع « بولين » الا ان تسكتها قائلة :

ـ كفى يا «فيرونيكا» .. ان بلوغ هؤلاء الاطفال سن العمل لايمنعهم من الشعور بالجوع .. وطالما انهم يأتون الى ، فهـــذا يعنى أنهم جائعون

وجلست الى مائدة صغيرة وضعت عليها المال والهدايا ، وفجـأة قال « لازار » الواقف بجانبها حين وقعت عيناه على ابن آل «هوتلارد»:

ـ ألم أمنعك من العودة الى هنا ايها الافاق الكسول ؟.. ألا يخجل والداك من ارسالك للتسول وانتم أحسن حالا من غيركم ؟.. ألا تتركون هذا الاحسان لمن هم أحق به منكم ؟

وبكى الغلام ـ وكان نحيل الجسم فى نحو الخامسة عشرة من عمره ـ وقال :

ـ انهما يضربانني لكى آتى اليكم .. ان ابى يضربنى بينما تجرجرنى زوجته بحبل الى خارج البيت قائلة انها لن تسمح لى بالدخول الا اذا أحضرت شيئا من الطعام معى ..

ثم رفع ملابسه لـكى يكشف لهما عن اثار الضرب وسحجات الحبل وكانت زوجة أبيه هى خادمته السابقة ، فقالت «بولين» لـ «لازار» برفق :

ـ ارجو ان تضع على جروحه بعض المطهرات والمراهم ..

ثم قدمت للغلام قطعة من ذات الخمسة فرنكات قائلة :

ـ اعطهما هذه القطعة ، وقل لهما اننى لن أرسل اليهما أى شىء اذا ضرباك مرة اخرى ..

وكان الصغار الاخرون قد بدأوا ـ بعد ان شـــعروا بالدفء ـ يتشاجرون ويلكز بعضهم البعض ، هذا بينما استطاع طفل صغير منهم ان يختلس جزرة وراح يلوكها بشراهة ..

وقالت « بولين » لاحد الغلمان :

ـ اسمع يا كوش .. هل إخبرت والدتك اننى حجزت لها مكانا فى مصحة بابو للامراض المزمنة ؟!

وكانت زوجة كوش ، تلك المخلوقة الدميمة البائسة التى هجرها زوجها ـ والتى أخذت تحترف الدعارة لتأكل ـ تعيش فى كهف صغير على الشاطىء ، ورغم انها مقعدة بسبب كسر ساقها ، فقــد ظلت تمارس حرفتها الشائنة مع كل راغب نظير مبالغ تافهة تشترى

بها الخبز والخمر ..!

وقال الغلام بصوت بغيض اجش :

ـ نعم يا آنسة .. لقد أخبرتها .. ولكنها لاتريد ان تذهب !

وكان غلاما فى نحو السابعة عشرة ، قوى الجسم ، جرىء السمت ، جاحظ العينين . وقد قالت له « بولين » فى دهشة حين سمعت حديثه :

ـ ماذا تعنى ؟

وصاح « لازار » غاضبا :

ـ يقول انهـا ترفض الذهاب الى المصحة ؟.. نعم .. نعم .. وانت ايضا لا تريد ان تكسب رزقك من عمل شريف .. لقد طلبت منك هذا الاسبوع ان تأتى وتساعدنى فى زرع الحديقة الخلفية ،ولكنك لم تفعل ..!

فتمايل الغلام باستهتار وقال :

ـ لم يكن لدى وقت ..

ولما رات « بولين » ان زمام الغضب سيفلت من « لازار » تدخلت قائلة :

ـ اجلس ، لسوف نتحدث فى هذا الشأن فيما بعد .. حاول أن تفكر فى قبول هذا العمل والا فسوف أغضب منك ..

وجاء بعد ذلك دور ابنة آل « كونين » .. وكانت قد بلغت الثالثة عشرة ، وبدت جميلة رشيقة ، وان كانت نحيلة عجفاء .. وقبل ان يسألها احد ، انطلقت تشكو سوء الحال بعبارات سريعة ، قائلة ان اباها قد فقد القدرة على الحركة تماما ، وانه لم يعد قادرا حتى على الحديث الا غمغمة ، وان عشيق أمها ـ ذلك المدعو كوش الذى هجر زوجته ـ لايكف عن ضرب أبيها حتى كاد ان يقتله فى هـذا الصباح !

واستطردت الفتاة تقول :

ـ وكذلك أمى تساعد عشيقها على ضرب ابى .. وفى المساء تنهض مع عشيقها وتسكب الماء البارد على جسم أبى لانه يقلقهما بتأوهاته ، ولو أنك يا آنسة ترين كيف أصبح عاريا ..

وأسكتتها « بولين » ـ بعد ان طلبت من « فيرونيكا » ان تأتى

اليها بملاءتين ـ قائلة .

ـ كفى .. كفى ..

وقال لها « لازار » وهو يحدجها بنظراته :

ـ وانت أيضا ؟ .. الا تساعدين امك وعشيقها على تعذيب ابيك ؟ ثم ماذا كنت تفعلين ـ ذاك اليوم ـ فى قارب « هوتلارد » مع رجل انطلق هاربا عندما رآنى مقبلا نحوكما .. تكلمى ..

فضحكت الفتاة باستهتار وقالت :

ـ انه لم يكن رجلا غريبا .. انه هو نفسه « كوش » عشيق امى .. لقد دفعنى رغما عنى الى ذلك الزورق !

فقال « لازار » باشمئزاز :

ـ كاذبة .. لقد رأيتك وانت تعانقينه .. يبدو انك بدات احتراف هذه المهنة الملعونة فى سن مبكرة أكثر مما يجب ..

ووضعت « بولين » يدها على ذراع « لازار » .. فقد كان بقية الاطفال الاخرون ينصتون باهتمام ، وهم يتضاحكون خفية . اما « لازار » فقد راح يتساءل فى نفسه عن كيفية الارتفاع بمستوى هؤلاء الناس الذين يعيشون ـ رجالا ونساء وصغارا ـ حياة حيوانية دنيئة !

اما « بولين » فقد اعطت الفتاة الملاءتين وزجاجة خمر ، واخذت تنصحها بهدوء وهى تبين لها مدى الاخطار التى سوف تتعرض لها اذا هى استمرت فى حياتها على هذا النحو

وقال « لازار » لابنة آل « برون » بصوت الذى يريد ان يفرغ من هذه المهمة بسرعة :

ـ لقد فقد والداك رشدهما امس من فرط الاسراف فى شرب الخمر وقيل لى انك كنت أكثر الثلاثة سكرا ..!

فردت الفتاة قائلة بلهجة تنم عن الكذب :

ـ لا ياسيدى .. لقد كنت أعانى فقط من الصداع ..

ووضع امامها اناء به كرات من اللحم المفرى ، وقال لها :

ـ كلى هذا امامنا .. انك تعانين من الانيميا ، وان اسرافك فى شرب الخمر سوف يزيد حالتك سوءا ..

وبعد ان أكلت الفتاة ثلاث كرات ، قالت :

ـ هذا يكفى .. ليس لى شهية لمزيد ..

فقالت لها « بولين » وهى تمسك زجاجة الشراب المقوى :

ـ اذا لم تأكلى بقية اللحم ، فلن اعطيك نصيبك من هذا الشراب

ولم يسع الفتاة الا أن تطيع الامر وعيناها لاتفارقان زجاجة الشراب . فلما فرغت قالت متلهفة :

ـ أرجوك أن تعطينى الزجاجة كلها حتى لا أضطر للحضور كل يوم ..

فقالت « لازار » :

ـ لكى تشربيها دفعة واحدة وتسكرى .. !

واستمرت مهمة عملية توزيع الهبات ، ولم يبق فى النهاية غير ابنة آل « نورمال » التى كانت جالسة فى الركن بجوار المدفأة .. وكانت فى العاشرة من عمرها ، ضئيلة الجسم كأنها قزم .. !

ولما استدعتها « بولين » انطلقت الطفلة تقول بلهجة المتسولين :

ـ الرحمة يا آنسة .. ان أبى فى السجن ، وأمى فى المستشفى ، وجدى مريض .. وأنا لا أجد ما آكله ..

فقال « لازار » غاضبا :

ـ كفى كذبا أيتها الشريرة .. ان أباك فى السجن بتهمة تهريب البضائع ، ويوم كسرت ساق جدك كان يسرق المحار من مصايد الحكومة .. أما أمك فهى أشهر سارقة دواجن فى فيرمونت .. اتحسبين أننا لانعرف كل هذه الحقائق عنكم ؟

ولكن الطفلة استطردت تقول وكأنها لم تسمع شيئا :

ـ الرحمة يا آنسة .. اننا سنموت جوعا اذا لم تعطنا اليوم شيئا ..

فقالت لها « بولين » وهى تعطيها قطعة نقود :

ـ كفى .. كفى .. خذى هذه وانصرفى

واختطفت الطفلة قطعة النقود ، واندفعت الى الخارج وقبل أن تبتعد ، اكتشفت « فيرونيكا » اختفاء الاناء الفضى الصغير الذى اعتادت « بولين » ان تشرب فيه الشاى ، ومن ثم هتفت قائلة وهى تسرع للحاق بالطفلة :

ـ السارقة اللعينة .. لقد سرقت اناءك الفضى يا آنسة .. !

وبعد لحظات ، عادت « فيرونيكا » بالاناء وهى تلهث قائلة :

ـ لقد وجدته بين أسمال هذه اللصة اللعينة .. ألم اقل لك يا آنسة ان عطفك على هؤلاء الشياطين لن يؤدى الا الى سرقتنا ؟

ولم تحزن « بولين » لما حدث بقدر حزنها لتأثير ذلك كله فى نفسية « لازار » .. فقد بدا على وجهه ما ينم عن الامتعاض الشديد والاشمئزاز البالغ واليأس الممض من اصلاح أمر هؤلاء الاوغاد . وكانت تعلم انه لم يكن يشاركها فى توجيه أولئك الاطفال ورعايتهم الا رغبة فى ارضائها .. ذلك لانه لم يكن يؤمن بواجبات المرء نحو غيره من البؤساء والمحرومين . أما هى ، فكانت تقوم بهذه المهمة بدافع من حبها للناس جميعا ، وعن ايمان عميق بأن الانسان لم يخلق لنفسه فقط .. وقد حدث فى النهاية ماكانت تخشاه ، ذلك ان « لازار » قال لها بعد ان غسل يديه انه لن يشترك معها فى هذا العمل ، وأنه يفضل أن يسحق تحت قدميه هذه الحشرات الآدمية المؤذية بدلا من أن يطعمها ويساعدها على الاستمرار فى حياة كلها خطيئة وشر ..

وقد أعرب عن شعوره فى مساء ذلك اليوم نفسه ، حين قال وهو جالس معها على انفراد :

ـ اننى أشعر كأنى خرجت فورا من بالوعة مجارى .. !

ثم أردف متسائلا :

ـ اننى لا أدرى لماذا تحبين هؤلاء الشياطين ؟!

فردت قائلة بهدوء :

ـ اننى أحبهم عطفا عليهم ورحمة بهم .. ألا تشعر انت بالرحمة لكلب ضال شريد فتلتقطه من جانب الطريق وتعنى به ؟!

فهز كتفيه وقال :

ـ ان الكلب ليس مخلوقا بشريا .. !

فردت قائلة :

ـ ان الانسان أحق بالرحمة من الحيوان ، لانه أكثر احساسا بالبؤس والشقاء .. ثم ان الرحمة بالغير هى غاية فى ذاتها .. حقا انه من المؤلم للنفس الا يحاول هؤلاء البؤساء اصلاح شأنهم ، لانهم لو حاولوا هذا لكانوا اقل بؤسا وشقاء .. ولكن يكفينى انى اقدم

لهم الدفء والطعام . ان هذا وحده يجعلنى أشعر بالسعادة ..
وانى أرى من واجبى أن أقلل الشقاء فى العالم بقدر ما أستطيع .
ولو أن كل انسان يفعل هذا ، لما كان هناك شقاء بين البشر .. المهم
الا ينتظر الانسان أى جزاء على مايقدمه لغيره من خير ..

وبعد برهة صمت ، قالت فى أسف :

ـ اننى أرى ياعزيزى أن مشاركتك لى فى هذا العمل تزيد من
شعورك بالضيق والملل .. ولهذا فلن اطالبك بالاستمرار فى هذه
المشاركة حتى لاتزداد احساسا بالقسوة على هؤلاء المساكين !

***

ومما زاد آلام « بولين » من سلوك « لازار » أنه ظل يتباعد
عنها ، ويحاول جاهدا أن يتجنب البقاء معها فترات طويلة ، سواء
داخل البيت أو خارجه . وقد شعرت هى بالعجز عن اخراجه من
عالمه الكئيب الضيق .. عالم التشاؤم والشعور الدائم بالملل . وكثيرا
ماحاولت أن تجد تبريرا مقنعا لاكتئابه الدائم .. وكلما خطر ببالها
أنه يشعر بالحنين الى « لويز » أحست كأن أصابع باردة تعتصر
قلبها ، وهزت رأسها بعنف ، ولجأت الى كبريائها الانثوى ، وآلت
على نفسها أن تضاعف جهدها لتجعله سعيدا ولو ضحت بسعادتها
هى اذا لزم الامر !

وفى ذات ليلة ، قال « لازار » عبارة قاسية وهو يتثاءب :

ـ ما أشد احساس المرء بالعزلة هنا .. !

ونظرت « بولين » اليه فى دهشة ، واحست مرة أخرى ، كأن أصابع
باردة تعتصر قلبها .. !



الفصل الحادى عشر

تضحية قلب

عبثا حاولت « بولين » أن تخفف عن « لازار » أو تضفى على حياته جوا من السعادة والرضـــا .. لقد ظل يعيش فى حالة من الاكتئاب والقلق ، كأنه انسان تائه فى الحيــاة ، يبحث عن شىء أو يحاول أن يطمئن الى شىء ، ولكنه لايجد مايبحث عنه أو يطمئن اليه

وكان يردد كثيرا انه لابد ان يفعل شيئا او يقوم بعمل ما ، ولكنه لايلبث أن يعود الى حالته من القلق والحيرة .. لقد حاول أن يستأنف هوايته للموسيقى ، وأن يضع التكملة لسيمفونيته « جنة الارض » بعد أن غير اسمها الى « العذاب الابدى » ولكنه لم يلبث أن سخر من محاولاته ، ثم عمد الى النظم وقال انه سيضع ملحمة شعرية يهز بها العالم .. ولكنه لم يلبث أن نفض يديه من الشعر بعد أن كتب بضعة أبيات بلا وزن أو قافية .. وقال انه خلق ليكون كاتبا روائيا ، أو كاتبا مسرحيا ، وانشغل بضعة أسابيع فى قصة مطولة ، الا أنه لم يلبث ـ كالمعتاد ـ أن نفض يديه قائلا ان هذا كله عبث لا جدوى منه !

وفى ذات يوم صعدت « بولين » الى غرفته لتحدثه فى أمرها ، فوجدته واقفا وظهره الى الباب ، يتأمل شيئا بين يديه .. ولما أحس بها ، أخفى ذلك الشىء بسرعة ، ولـكنها لم تبــال بالامر ، وحاولت أن تضحك معه قائلة :

ـ ماهذا الذى تخفيه ؟ .. ذكريات غرام ؟! ..

ولم تكن تدرى فى تلك اللحظة أنها لم تجاوز الحقيقة كثيرا .. ذلك أن هـــذا الشىء الذى أخفــاه « لازار » بسرعة كان قفــازا لـ « لويز » .. نسيته عند انصرافها العـــاجل من البيت ، وكان

القفاز لايزال يحمل عطر الهليوتروب النفاذ الذى اعتادت « لويز » ان تتعطر به دائما ..

كان « لازار » من فرط شوقه الى « لويز » يلجأ بين الحين والآخر الى هذا القفاز الذى عثر عليه مصادفة ، فيقلبه بين يديه ، ويرفعه الى انفه وشفتيه ، ثم يعيش لحظات قد تمتد الى ساعة أو أكثر فى خيال مع « لويز » .. وكان بعد كل مرة يهبط الى صالة الطابق الارضى متخاذلا ، منهوك القوى ، مكتئب الوجه ، ملول النفس

وكانت « بولين » تقول لنفسها كلما شعرت أن مجهوداتها لنشر ظلال السعادة على البيت تأتى بنتيجة عكسية :

ـ ترى ماذا جرى ؟ .. ان كلا منا يحب الآخر ، ومع ذلك فنحن غير سعداء .. ان عواطفنا تسبب لنا التعاسة بدلا من السعادة !

وحاولت جاهدة ان تدرك السبب .. وخطـــر لها ان هذا كله راجع الى التنافر الواضح فى طبيعتها وطبيعة « لازار » .. فبينما هى تحاول ان تعيش لغيرها وتستمد سعادتها من ســـــعادة الناس حولها ، كان هو يعيش فى قوقعة مغلقـــة من الانانيـــة والانفرادية والسلبية ..

هل تتخلى عن طبيعتها لتغدو مثله حتى تتلاءم معه ؟ .. انها لا تستطيع ان تفعل هذا حتى لو حاولت . اذن هل تحاول ان تطرد أشباح الشقاء المخيمة على البيت برنين ضحكاتها ، واضواء تفاؤلها وابتهاجها ؟ انها بعد أن حاولت هذا ، أصــبحت عاجزة حتى عن اطلاق ضحكة خالصة من صميم قلبها .. بل ، على العكس ، لقــد توترت أعصابها هى أيضا ، وصارت تغضب من « فيرونيكا » لأى سبب ، ومن ثم قالت لها هذه المرأة ذات يوم :

ـ لقد ساءت الاحوال الى حد لايطاق .. فاننا نحن الاربعة نكاد نمزق بعضنا بعضا لاتفه سبب .. فأين هذه الحيــــاة من حياتنا السابقة مع المرحومة سيدتى التى أشعر الآن بأننا فقدناها حقا ..

والواقع أن اعصاب الجميع كانت تزداد توترا على مر الايام .. حتى العجوز « شانتو » لم يعــد لطيفا مع « بولين » كما كان فى الاعوام السابقة ، فان اشتداد المرض عليه كان يدفعه الى الغلظة فى معاملتها تماما كما كان يفعل مع « فيرونيكا » ..

وهكذا اصبحت الحياة فى البيت لاتطاق .. !

وقررت « بولين » ذات يوم أن تسحق الشعور بالغيرة فى قلبها ، وأن تسأل نفسها « هل من حقها أن تفرض سعادتها على لازار ؟ » انها حقا تريده سعيدا .. ولكنها عاجزة عن تحقيق هذا الهدف ، فى قرارة نفسها تشعر أنه يعيش فى عزلة اجتماعية تملأ نفسه بالشقاء .. فلو أنها ــ فعلا ــ أصلحت الامور مع «لويز» واستدعتها للاقامة معهم بين الحين والآخر لامكن ان تخفف من وحشته ، وأن تعيد اليه جو الرضا والابتهاج

ان « لازار » لايزال يحبها .. يحب « بولين » .. انها واثقة من هذا ، ولسوف يزداد حبه لها عندما يعرف « لويز » على حقيقتها .. أما وهى غائبة عنه ــ رغما منه ــ فلاشك أنه مشوق اليها ، يشتهى أن يراها .. وحتى لو تبين فى النهاية أن « لويز » هى الاصلح له ، والاحق بحبه ، فعليها ــ أى « بولين » ــ أن تدع له حرية الاختيار ، والا تفرض حبها عليه أيا كانت الاسباب !

وكان من عادة « بولين » أن تذهب الى مدينة « كان » لتتسلم ايراد الاسهم والسندات .. وكانت تذهب فى الصباح ، وتعود مساء متعبة وهى تحمل الكثير من الحاجات التى يستلزمها البيت . ولما ذهبت فى آخر شهر يونيه من ذلك العام ، تأخرت فى العودة مساء حتى استبد القلق الشديد بـ « لازار » ووالده . وبعد ليلة قاسية أمضاها الجميع ، قرر « لازار » فى صباح اليوم التالى أن يذهب الى « كان » ليرى ماذا حدث لـ « بولين » ولكنه ماكاد يهم بمغادرة البيت ، حتى هتفت « فيرونيكا » من خارج الشرفة قائلة :

ــ هاهى ذى الآنسة قد جاءت فى مركبة « ماليفوار » .. ان معها شخصا آخر

ولشد ماكانت دهشة « لازار » حين راى « بولين » تهبط ضاحكة مع « لويز » وكأنهما صديقتان حميمتان .. ومن ثم اسرع عائدا الى أبيه ، وقال له وهو لايصدق مارأى :

ــ لقد صحبت « لويز » معها .. !

وقال العجوز « شانتو » مبتهجا :

ــ « لويز » ؟! .. ما أحسن ما فعلت ؟ ..

ولما أقبلت الفتاتان اليه ، احداهما « بولين » فى ملابس الحداد ، والاخرى فى ثوب صيفى جميل ، أردف قائلا :

ــ آه .. أخـــيرا جئت يا عزيزتى « لويز » ؟ اننى لا ادرى لماذا انقطعت عن زيارتنا كل هذه المدة الطويلة ؟ .. هل أســـاء اليك أحد ؟ .. ثم كيف تموت عمتك المسكينة دون أن تأتى لمواساتنا ؟ .. حسنا .. حسنا .. لاداعى للاعتذار .. يكفى أنك جئت اليوم

وكان « شانتو » لايعرف شيئا مما حدث بين « لويز » و« بولين »

وقبلت « لويز » العجوز « شانتو » لتخفى ارتباكهـا ، بينمـا استطرد هو يقول :

ــ هل تقابلتما مصادفة ؟!

فقـالت « لويز » وهى تلتفت نحو « بولين » بعينين مليئتين بالدموع :

ــ لا ياعمى .. لقد جاءت « بولين » لزيارتنا .. وأرجو أن تغفر لها مبيتها الليلة معنا ، لانى انا التى صممت على استضافتها .. ولما كانت البرقيات لاتتجاوز بلدة أرومانش ، فقد رأينا أن حضورنا الآن سيكون أسرع مما لو أرسلنا برقية ..

ثم عادت وقبلت العجوز « شانتو » الذى أعرب عن ابتهاجـــه الشديد بحضورها ، والذى قال فى النهاية :

ــ وماذا عن « لازار » ؟ .. ألا تقولين له شيئا ؟

وكان « لازار » واقفا فى المؤخرة ، يحاول اخفاء ارتباكه بابتسامة واهنة ، ولا يكف عن التساؤل فيما بينه وبين نفسه : « عجبا ؟ لمـاذا أحضرت « لويز » معها ؟ .. أليست هى نفسها غريمتها التى أصرت على طردها من البيت ؟ »

وأفاق من تساؤله على صوت « بولين » وهى تقول له :

ــ تعال يا « لازار » وقبل « لويز » مادامت هى مترددة ..

ووقفت « بولين » بوجه شاحب ، ولكن بهدوء واتزان ، تنظر الى « لازار » وهو يطبع قبلة خفيفـة على وجه « لويز » .. أما « فيرونيكا » التى وقفت بباب المطبخ تتأمل ما يجرى أمامها ، فقد شعرت بالدهشة البالغة تملأ نفسها ، بل لقد خطر لها أن « بولين » تمادت فى التضحية بنفسها الى حد الجنون !

وتناول الجميع العشاء فى تلك الليلة بشهية وابتهاج .. ولم يلحظ العجوز « شانتو » فى غمرة سروره ، ماكان يبدو على الثلاثة من توتر عصبى أو تكلف فى المعاملة .. فرغم أن كلا منهم كان يبـدو طبيعيا فى تصرفاته ، الا أنه كان ثمة احساس مشترك بالقلق والحيرة والتساؤل ..

وظل هذا الاحساس سائدا لمدة أسبوع . ولم يجرؤ « لازار » على سؤال « بولين » عن سر احضـارها ل «لويز» .. كان يخشى ان يكون فى الامر مؤامرة لكشف عواطفه .. ولم يخطر ببـاله البتة انها قررت التضحية بعواطفها ـ بل وبسعادتها اذا لزم الامر ـ لكى تتيح له فرصة اختيار الزوجة التى يجب أن يقضى حياته معها . وكان هو ـ رغم اشتهائه العنيف ل « لويز » ـ لم يفكر يوما فى أن يتخذها زوجة له .. وعلى هذا النحو من القلق وعدم الاستقرار ، عاش الثلاثة الاسبوع الاول .. على أن شـيئا واحدا أفعم قلب « بولين » بالسعادة ، وهو اقبال « لازار » عليها فجأة ، واهتمامه بأمرها ، وترديده أمامها بأنها « أحسن فتاة فى الدنيا » .. هـذا بينما كان يحاول الابتعاد عن « لويز » وتجنب الاستسلام لاغرائها ، وعدم الانفراد معها فى غرفة واحدة خشية أن يتكرر ماحدث من قبل ..

ولما لاحظت « بولين » هذا الموقف بين الاثنين ، قالت ل « لازار » ذات يوم :

ـ لماذاتتجنب « لويز » الى هذا الحد ؟ .. انها لم تأت الينـا لكى تعاملها بمثل هذا البرود !

وراوغ « لازار » فى الاجابة ، وعادت هى تقـول مشيرة ـ لاول مرة ـ الى ماحدث :

ـ لقد جئت بها لكى تتأكد يا « لازار » أنى غفرت لك كل شىء .. اننى أريد أن أمحو هذا الحلم المزعج من حياتنا . وأعتقد أنه لم يبق منه شىء الآن ، والدليل على هذا أنى أضع ثقتى فيكما معا ..

وأخذها بين ذراعيه ، وعانقها بحنان ، ووعدها بأن يغير تصرفاته مع « لويز » ..

وأخذت الحياة منذ ذلك الحين تبدو أكثر بهجة .. ف « لازار »

يضحك ويغنى ولا يعرب عن الملل أو الضيق ، والعجوز « شانتو » سعيد بهذا الجو المفعم بالمرح وراحـة الاعصاب ، و « فيرونيـكا » أصبحت أقل دمدمة ونفورا ، و « بولين » تستمد من سـعادة الجميع ، سعادة لها ..

ولم تلبث العلاقات القديمة بين « لويز » و « لازار » أن بدأت تعود الى سابق عهدها تدريجيا .. وعادت الهمسات بينهما ، وأخذ كل منهما يشعر بالنشوة عند لمسات الايدى ، ولكن « لازار » كان فى هذا كله حريصـا ألا يتكرر ماحـدث من قبل ، عندما فاجأته « بولين » وهو يعانق « لويز » ويوشك أن يستغرق معها فى الخطيئة !

واكتفت «بولين» بأن تقف منهما موقف الام الحانية على أطفالها .. وكلما رأت « لازار » سعيدا ، ابتسمت فى غبطة ، وكتمت فى قلبها همسات الغيرة ، وأكدت لنفسها أن العلاقة بينهما ليست الا نزوة عابرة ، بعكس علاقته بها القائمة على الحب العميق ..

وفى ذات يوم ، بينمـا كان « لازار » و « لويز » فى رحلة الى فيرمونت ، صعدت « بولين » لتبحث عن محلول لتنظيف المخمل فى خزانة « لازار » الكبيرة .. وفيما هى تبحث عن المحلول ، عثرت يدها على قفاز « لويز » المعطر بشذى الهليوتروب ، وأدركت فورا أن هذا هو « الشيء » الذى أخفـاه « لازار » عنهـا يوم فاجأته فى هذه الغرفة ..

ومرة أخرى أحست بقلبها يعتصر تحت ضغط انامل باردة .. اذن ليس مابين « لازار » و « لويز » مجرد نزوة عابرة .. انه الحب .. انه الاشتهاء الجنسى الذى لابد أن يكون اساس حب كل رجل وامراة يريدان الزواج احدهما من الآخر ..

فماذا ينبغى أن تفعل ؟! ..

ظل هذا السؤال يراودها طيلة اليوم ، ويلح على ذهنهـا وهى راقدة على فراشها ليلا ..

يجب أن تجيب عن هذا السؤال باتخاذ موقف حاسم ..

ولم تستطع أن تستغرق فى النوم قبل أن تقرر فى نفسها امرا ..

وفى الصباح ، شعرت بالرضا لانها رات أن عواطفها لم تختلج أمام هذا القرار الذى اتخذته فى الليلة السابقة . لقد قررت أن تنسى

نفسها وأن تقف من « لازار » و « لويز » الموقف الذى يمليه عليها ضميرها .. فاذا انتهى الامر الى زواجهما ، فانها سوف تخلى لهما الجو ، وترحل الى مكان آخر حيث تستأنف حياتها من جديد ..

وكانت طبيعية فى تصرفاتها ، وهى تتناول طعام الافطار .. بل ان رؤية « لازار » و « لويز » وهمـا جالسان جنبا الى جنب يتضاحكان ويتهامسان لم تؤثر فى قرارها الذى اتخذته ، وان ملأت قلبها بالالم والحسرة ..

ولما كان ذلك اليوم يوم سبت ، فقد خرجت مساء لتستقبل الدكتور « كازينوف » فى طرف البلدة ، ثم تعود معه ، بعد أن تعرض عليه الموقف كله ..

وأخبرته بكل شىء وهى تسير بجانبه وراء المركبة التى أخذ العجوز « مارتن » يقودها ببطء أمامهما .. ولما فرغت من حديثها ، توقف الدكتور « كازينوف » برهة ، واخذها بين ذراعيه من فرط التأثر ، وقال لها بعد أن قبلها بحنان :

ـ لقد أحسنت يا ابنتى .. وانى سعيد اذ انتهت الامور عند هذا ، لانى كنت أخشى أن تنتهى الى ماهو أسوأ .. لقد أمضيت شهورا وأنا أشد ما أكون قلقا عليك كلما رايتك غير سعيدة .. والواقع ان هؤلاء الناس كانوا قساة عليك الى حد كبير .. فثروتك أولا .. ثم سعادتك .. ضاع كل هذا على ايديهم .. !

فقالت « بولين » :

ـ لا .. لا .. أرجوك .. لاتسرف فى الحملة عليهم .. يكفى أنهم فتحوا لى بيتهم كل هذه الاعوام ..

فقال الطبيب باصرار :

ـ حسنا .. حسنا .. ولكن هذا لن يمنعنى من الشعور بالسعادة لقرارك . نعم ، اتركى « لازار » .. دعيه لـ « لويز » ... انه ليس بالشاب الذى يبكى أحد على فراقه .. فمهما تكن نواياه الطيبة ، ومهما بلغت جاذبيته ، فانه ليس بالرجل الذى يستطيع ان يسعد زوجته .. اننى أفضل عليه اى زوج آخر ، ولو كان صبى جزار ، مادام يعرف كيف يواجه الحياة بشجاعة وابتسام !

ولما راى الدموع تترقرق فى عينيها ، قال معتذرا :

ـ انك لاتزالين تحبينه .. حسنا .. حسنا .. لنكف عن الحديث فى هذا الموضوع ، والآن قبلينى مرة أخرى لانك فتاة شجاعة عاقلة تحسنين التصرف ولا تستسلمين للعواطف الطائشة

ولما استأنفا المسير ، قال لها بلهجة جادة انه يوافقها على قرارها بمغادرة بونفيل بعد أن يتم زواج « لويز » و « لازار » وأكد لها انه سيبحث لها عن عمل مناسب . وقد حدث أن تعرف بسيدة ثرية تعيش بمفردها وفى حاجة الى وصيفة شابة ترعاها . وقال لها الطبيب ان هذه السيدة تقيم فى مدينة سانت لو ، وانها بلا أبناء .. ومن المحتمل جدا أن تتبنى « بولين » عندما تشعر بمدى ماهى عليه من اخلاص وحب الخير للجميع

وتم الاتفاق على كل شىء .. ووعدها الطبيب بأن يرسل لها خطابا فى خلال ثلاثة ايام يخبرها فيه بما تم الاتفاق عليه معالسيدة الثرية المقيمة فى سانت لو . وقرر الاثنان الا يخبرا أحدا بهذا كله ، كما رأت « بولين » أن تتكتم خبر قرارها بمغادرة بونفيل حتى يتم زواج « لويز » من « لازار » .. ثم تتصرف بهدوء فى صباح اليوم التالى ..

وبعد ثلاثة أيام ، استلمت «بولين» خطابا من الدكتور « كازينوف» يخبرها فيه ان السيدة المقيمة فى سانت لو على استعداد لاستقبالها فى أى وقت . وفى هذا اليوم نفسه ، انفردت «بولين » ب «لويز» فى الشرفة المطلة على البحر ، بينما كان «لازار» خارج البيت ، وقالت لها ببساطة وهدوء :

ـ دعينا يا حبيبتى نتحدث بصراحة ورفق .. انك تحبيننى قليلا يا «لويز» أليس كذلك ؟..

فقالت «لويز» وهى تضع يدها على ذراع «بولين» :

ـ بل أحبك كثيرا ..

ـ اذا كنت تحبيننى حقا ، فلماذا تخفين عنى اسرارك ؟

ـ. أؤكد لك اننى بلا اسرار يا «بولين» ..

ـ لا .. لا .. ياحبيبتى .. فكرى قليلا .. حدثينى بصراحة عن حبك .. ان الحب الذى نعلنه على الناس هو الحب الطاهر البرىء .. أما الذى نخفيه ، فهو الحب المناقض لكل براءة وطهر . وتأكدى

يا «لويز» انني لا أريد ان يتكرر ما حدث ..

وهنا انفجرت «لويز» باكية ، وعانقت « بولين » وقالت لها وهى تخفى وجهها على كتفها :

ـ أرجوك يا «بولين» انني أموت خجلا من مجـرد التفكير فيمـا حدث .. اذا أردت ان ارحل الآن ، فلن أتردد لحظة واحدة ..

فرفعت «بولين» وجه «لويز» بيدها وقالت باسمة :

ـ لا .. لا .. يا حبيبتى .. اننى لم أتحـدث معك الآن من اجل هذا ، بل انى أريد ان احقق السعادة للجميع .. انك تحبين «لازار» .. اليس كذلك ؟

فاضطرم وجه «لويز» بعنف ، وارتعد جسمها ،وحاولتأنتتخلص من ذراعى «بولين» لتفر هاربة .. ولكن «بولين» أسرعت تقول :

ـ لا ياحبيبتى .. يبدو أننى أسأت التعبير .. أؤكد لك اننىلست غاضبة أو ساخطة .. ولكننى ارجو فقط الا نرتكب اخطاء نندم عليها العمر كله .. انك تتبادلين مع «لازار» الحب .. أليس كذلك ؟.. حسنا .. اذا كان الامر كذلك ، فانى أريد ان يتم زواجكما .. فهذا هو الوضع الطبيعى للامور ..

تسمرت « لويز » في مكانها ، وحملقت فى وجه « بولين » مدهوشة، واخيرا قالت هامسة :

ـ وانت ؟.. ماذا ستفعلين ؟.. هل مات حبك لـ «لازار» ؟

ـ ان حبى لـ «لازار» تحول الى عاطفة أمومة أو اخـاء .. اننى أشعر كأنى اخته الآن .. او والدته اذا شئت ..

فهتفت «لويز» قائلة :

ـ لا .. لا .. انك تكذبين .. لا يمكن أن يتحول الحب الى هذه العواطف الهادئة .. انك تريدين أن تضحى بنفسك من أجلى ..

وقاطعتها « بولين » قائلة :

ـ اسمعى يا حبيبتى .. أؤكد لك انه ليس فى الامر اية تضحية، وانما انا اتصرف بناء على حكم العقل ، هل يرضيك ان أتزوج شابا يحب فتاة اخرى ؟! واذا كنت احب شابا حبا قويا ـ كما تقـولين ـ الا يدفعنى هذا الحب الى تهيئة اسباب السعادة له ؟.. انحبى لـ «لازار» هو الذى يدفعنى الى العمل لاتمام الزواج بينكما ما دمتما

تتبادلان الحب .. والآن ، علينا ان نتفق معا على قرار حتى لايشعر «لازار» بالحرج امامى ..

ولكن «لويز» اعترضت قائلة :

ـ لا .. لا .. يا «بولين» .. اننى لا استطيع ان اقبل هذهالتضحية .. لماذا تعذبين نفسك الى هـذا الحد من أجل الغير ؟.. اننى بدلا من ان اتآمر معك على سعادتك ، سوف أخبر «لازار» بكل شيء حتى يعرف اى ملاك طاهر انت !

فضمتها «بولين» الى صدرها بقوة ، وقالت لها :

ـ لا .. لا .. يا «لويز» .. هلم نعمل معا لاسعاده .. هذا هو واجبنا .. أرجوك ان تساعدينى .. أرجوك ..

وساد الصمت برهة بين الاثنتين ، ثم اذ كل منهما تعانق الاخرى كأنهما أختان حبيبتان ، تربط بينهما اقوى وأطهر عاطفة ..

***

ولما عاد «لازار» صعدت «بولين» لمقابلته فى غرفته .. نفس الغرفة الرحيبة التى طالما شهدت أحلى أيام حياتها .. ولانها كانت متلهفة الى الفراغ من هذه المهمة بسرعة ، فقد رات أن تحدثه عن الموضوع بصراحة وعزم ؟

ومن ثم قالت :

ـ «لازار» هل يمكن أن نتحدث معا على انفـــراد برهة ، ان لدى موضوعا خطيرا اريد أن اتحدث معك بشأنه ..

فسألها قائلا :

ـ ماذا حدث ؟.. هل ساءت حالة ابى ؟!..

ـ لا .. اسمع .. يجب ان نبحث الامر معا الآن .. فليس هناك اية فائدة من ارجائه يوما بعد آخر .، انك تتذكر كيف أرادتوالدتك ان تربط بينى وبينك برباط الزواج .. وقد تحـدثنا فى هـذا الامر كثيرا ، ولكننا اقلعنا عن مجرد الاشارة اليه منذ شهور ، ولهذا أرى أن من الحكمة ان ننفض ايدينا من هذا الامر نهائيا ..

فشحب وجه الشاب ، وهتف قائلا :

ـ ما هذا ؟.. عن اى شيء تتحدثين ؟.. الست زوجتى ؟.. اذا شئت امكننا ان نذهب غدا الى الاب « هورتيير » ليعقد زواجنا ..

اهذا ما تسمينه بالموضوع الخطير ؟

فردت قائلة بهدوء :

ـ انه موضوع خطير جدا لانه جعلك تغضب الآن .. ولهذا يجب أن نفرغ من علاجه الآن .. اننا حقـا صديقان عزيزان ، ولكننا لم نخلق لكى نكون زوجين متحابين .. فلماذا تصر على التمسك بمشروع لن يحقق السعادة لأحدنا ؟

وهنا اندفع «لازار» فى أقوال متعثرة لاتمت للمنطق بصلة.. قال لها انها تريد أن تتشاجر معه بغير سبب ، وانه لا يستطيع أن يبقى بجانبها ليلا ونهارا ، وانه ليس المسئول عن ارجاء الزواج شهرا بعد شــهر ، وان من الظلم البين اتهامه بأنه لم يعد يحبها .. لقد أحبها كثيرا ، وبلغ من حبه لها أنه كان يخشى أن يلمسها حتى لا يرتكب معها خطأ جسيما . ولكن لشد ما تبدو بعيدة ايام تلك السعادة الغامرة.. ولشد ما أصبحت تعامله ببرود كأنه مجرد قريب أو صديق عادى، ثم اختتم حديثه قائلا :

ـ يا عزيزتى المســـكينة .. لو أنك كنت تحبيننى حقا ، لالقيت بنفسك بين ذراعى بدلا من هذا الجدل العقيم ..!

وازداد وجهه شحوبا ، ولوح بيده فى احتجاج ، ثم تهالك جالسا على أقرب مقعد ، بينما ردت «بولين» قائلة :

ـ لا يا «لازار» .. من الواضح انك لم تعد تحبنى ... ولا حيلة لأحدنا فى هــذا .. فمن المحتمل جـدا أن كلا منا لم يخلق للآخر ، والواقع اننى لا اتمتع بذلك الشىء الذى يجعلك تتلهف على وتتعلق بى ..

فتململ فى مجلسه ، وقال فى تلعثم شديد :

ـ ما هو هدفك من هــذا ؟.. اننى أســألك : ماذا تريدين من التحدث فى هذا الموضوع ؟ لقد عدت الى البيت بهدوء ، وصعدت الى غرفتى دون أن يشعر بى أحد ، ثم اذا بك تفاجئيننى بهذا الحديث .. كيف تقولين اننى لم اعد أحبك ؟ وكيف تزعمين أن كلا منا لم يخلق ليحب الآخر ، ما هو الهدف من هذا كله ؟!..

فاقتربت «بولين» منه برفق ، وقالت وهى تضع يدها على كتفه :

ـ اريد أن أقول انك تحت فتــاة اخــرى ، وانا انصحك بالزواج منها ..

وتسمر «لازار» فى مكانه برهة .. ثم انفجر يقــول انها تريد أن تعذبه ، وأن غيرتها ستؤدى مرة اخرى الى تكرار ما حدث ، وانها تكره أن تراه ينعم بالسعادة يوما واحدا ، وانها تريد ان تجعله يعيش فى عزلة كاملة عن الناس حتى تطمئن الى استمرار حبــه ، وانصتت « بولين » الى هذا كله فى الم وصبر ، واخيرا هتفت قائلة بصوت مفعم بالعتاب :

ــ كيف تقول ياعزيزى اننى أريد ان أعذبك فى الوقت الذى اسعى فيه الى تحقيق السعادة لك ولو على حساب حيــاتى كلها ؟ .. ألم تعرف بعد اننى أعيش فقط لاسعادك ، واننى على استعداد للتضحية بكل شىء لأهيىء الك ولو ساعة واحدة من الســعادة .. انك تحب « لويز » .. أليس كذلك ؟ .. فهل انا مخطئة حــين أطلب منك أن تتزوجها دون ان تبالى بأمرى .. اننى اهبك لها ..!

فحملق فيها برهة ، ثم انفجر باكيا وهو يقول :

ــ أوه .. كفى .. كفى .. أرجــوك ، اننى احتقر نفسى بسبب ما يحدث فى هذا البيت منذ ســنوات . اننى مدين لك بمبالغ كبيرة .. لقد اخذنا ثروتك وبعثرناها فى مشروعات صبيانية . أتريدين بعد ذلك أن أستجدى منك الرحمة والعطف وأطلب ان تحلينى من وعدى لك .. أتحسبيننى محــروما تمــاما من كل نزاهة وشرف واحترام للنفس ؟

فغمغمت قائلة بفزع :

ــ «لازار» .. «لازار» .. أرجوك ..

ووثب فى غضب متزايد ، وراح يذرع الغرفة وهو يضرب صدره بجميع يده هاتفا :

ــ دعينى وشأنى ، اننى استحق الموت ... يجب أن أقتل نفسى حالا ، ألست انت حبى الوحيد ؟.. ألم أندم كثيرا على موقفى من تلك الفتاة الاخرى ، اننى على استعداد لأن أطردها الآن من البيت ارضاء لك ، ثم اسافر الى امريكا لاقضى بقية حياتى هناك ..

ولكن «بولين» رغم هذا كله استطاعت فى النهــاية أن تهــدىء أعصابه ، وان تبين له ان صوت الحكمــة هو الذى يملى عليها هــذا الموقف ، وأن عليه ــ من ناحية اخرى ــ أن يذعن للأمر الواقع ، والا

ينساق مع الخيالات والاوهام ، وأن يكف عن المبالغة فى كل شىء، وأن يدرك أن زواجه من « لويز » هو الوضع السليم للامور ما دام يحبها، وما دام والدها على استعداد لان يلحقه بعمل مناسب فى احدى الشركات بباريس . ولما حاولت أن تشير الى «دوطة» لويز الضخمة، انفجر «لازار» مرة اخرى قائلا :

ـ آه ... انك تبيعيننى لها الآن .. أليس كذلك ؟... لماذا لا تصارحيننى بأنك لا تريدين الزواج منى لانى ضيعت ثروتك ، ولانه لم يبق أمامى الا أن انحدر الى حد البحث عن زوجة ثرية .. لا .. هذا مستحيل .. أتسمعين ؟.. مستحيل ..

ولم يسع «بولين» الا ان تكف عن مجادلته بعد أن يئست من اقناعه ، ومن ثم نهضت من مكانها ، وقالت وهى تهم بالانصراف :

ـ فكر فى هذا الأمر .. اننى لا أريد أن أعذبك أو أشقيك ... ولا شك انك غدا سترى الحقيقة من زاوية جديدة ..

ولكن اليوم التالى مضى ، والعشاق الثلاثة فى حالة عنيفة من التوتر العصبى .. وبدت «لويز» مقرحة الجفنين من فرط البكاء ، واعتزل «لازار» الجميع فى غرفته طيلة اليوم .. وأخذت «بولين» تقوم بعملها المعتاد فى البيت وهى تحاول ان تبدو طبيعية .. ولكن هذه الحالة من التوتر اخذت تخف حدتها تدريجيا فى الايام التالية ، ثم اذ ب « بولين » ترى « لازار » يقبل « لويز » خلسة فى المطبخ عندما دخلت فجأة عليهما .. ولم يضطرب الاثنان كما حدث فى المرة الاولى ، وانما ضحكت « لويز » وحاولت أن تجرى بعيدا ، وأسرع « لازار » الى «بولين» وعانقها قائلا :

ـ لقد فكرت فى الامر ، وادركت أنك أحسن وأجمل أخت فى الدنيا. وأؤكد لك اننى لا زلت احبك كما كنت أحب امى ..

واستطاعت «بولين» أن تكتم آلامها ، وأن تقول :

ـ حسنا جدا .. اننى سعيدة يا « لازار » .. وأرجو أن يتم الزواج فى أسرع وقت ..

ثم انطلقت صاعدة الى غرفتها خشية أن تقع مغشيا عليها ..

***

وتمت اجراءات زواج «لازار» من «لويز» بسرعة بالغة ، ووافق

المسيو « تيبو دير » ـ والد « لويز » ـ على اسنادمنصب لـ «لازار» بشركة تأمينات باريس ؟ وما هى غير أيام معدودة حتى تم عقد القران فى مدينة «كان» . وبعد أن شهدته «بولين» عادت ليلا ـ بمفردها ـ الى بونفيل فى مركبة «ماليفوار» ، ثم صعدت الى غرفتها ، وألقت بنفسها على فراشها ، وانخرطت تبكى بعنف . ولما هدأت نفسها قليلا ، نهضت وأوقدت الشموع القليلة ، وراحت تخلع ملابسها قطعة قطعة أمام المرآة ..

وبقلب خافق ، وعواطف مشبوبة ، شرعت تتأمل وجهها المستدير المتناسق الملامح ، وخصلات شعرها الذهبى الناعم التى تحيط به كاطار فاخر.. ثم هبطت بنظراتها الى كتفيها المستديرتين، وذراعيها البضتين ، ونهديها البارزين فى قوة وتحد ، ثم طفرت الدموع الى عينيها وهى تتأمل منطقة البطن .. منطقة الامومة .. وتساءلت : هل ستقضى حياتها دون أن تحقق رسالتها كزوجة وأم ..؟ هل ستعيش راهبة ، عانسا ، لا تنعم بحرارة عناق الرجل لهذا الجسم العذرى الجميل ، ودون أن تحمل فى هذه البطن جنينا يحقق لها رسالتها الانثوية فى الحياة ؟..

أنها ـ من ناحية الجسم ـ أجمل كثيرا من «لويز» .. ومن ناحية الانوثة ، أنضج كثيرا .. لقد رأت جسم «لويز» العارى فى مناسبات كثيرة ، ولكن شتان بين أطراف «لويز» العجفاء الهزيلة وبين أطرافها هى المستديرة المشدودة كالمطاط.. وشتان بين صدر «لويز» المسطح، وصدرها هى النافر المفعم بالجاذبية الجنسية ..!

وعضت «بولين» على شفتيها حتى لا تنفجر باكية مرة اخرى ، ثم عمدت الى ملابس النوم ، فارتدتها .. ولما أسفر الصباح ، أخذت تعد حاجياتها لتغادر البيت مع الدكتور « كازينوف » حسب الاتفاق الذى كان قد تم بينهما

وفيما هى تضع ملابسها فى الحقائب ، اذا بـ « فيرونيكا » تهرع اليها قائلة :

ـ أسرعى يا آنسة « بولين » .. ان المسيو « شانتو » فى حالة سيئة جدا ..

وسيت «بولين» ملابسها وحقائبها، وأسرعت الى العجوز «شانتو»

الذى كان يعلم سلفا بقــرارها عن الرحيل عن البيت .. فلما رآها حاول أن يكتم آلامه وآهات توجعاته ، ثم قال :

ــ لماذا جئت يا «بولين» ؟.. انك قررت الرحيــل وتركى لآلامى وأحزانى .. حسنا ، اذهبى واستمتعى بالحياة كما تشائين ، ودعينى وشأنى ، فما انا الا عجوز مريض لا يقبل أحد أن يقيم معه .. اذهبى يا ابنتى الى تلك السيدة الثرية التى سوف تغدق عليك من أموالها..

وركعت «بولين» بجانبه ، وقالت فى حرارة :

ــ لا يا عمى .. لن أرحل .. لسوف أبقى بجانبك ولو ضحيت فى هذا السبيل بعمرى كله ..!

وقال الدكتور « كازينوف » الذى كان قد حضر فى تلك اللحظة ، وسمع كلماتها :

ــ يا للملاك المسكين يبدو لى أنها لن تستطيع النجــاة من جحر هذه الافاعى !



الفصل الثانى عشر

يقظة الحب

وعادت الأيام تمــر فى بيت آل « شانتو » ببلدة بونفيل ، وأقبل شتاء بارد عاصف ، تبعه ربيع مطير .. ثم تلكأ الصيف طويلا قبل أن يخلى المكان للخريف .. ثم شـــتاء آخر .. وأعقبــه ربيع ثان ، ثم صيف وخريف ..

واستردت «بولين» هدوء نفسها ، وطوت قلبها على آلام الحب ، واستأنفت الحياة كما كانت تفعل من قبل .. تبذل من نفسها للعجوز «شانتو» ولأبناء الفقراء فى القرية ، وللدكتور «كازينوف» الذى ظل يحضر مساء كل سبت لتناول العشاء مع الاسرة ومع الاب «هورتيير» .. وأخذت الايام تمضى تباعا ، كل يوم كسابقه ، حتى انتهى العــام الاول على زواج «لويز» و «لازار» وبدأ العام الثانى ..

وكان «لازار» بعد رحيله مع زوجته الى باريس ، يرسل الخطابات بانتظام . وكانت «بولين»تعيش على انتظار هذه الخطابات .. تقرؤها .. وتحاول أن تشارك «لازار» فى حياته التى يصفها باسهاب ... ولشد ما كان يؤلمها أن تستشف من خطاباته آلامه النفسية، ومشاعره المركزة حول الخوف من الموت ، وبدء شعوره بالملل من عمله الرتيب فى شركة التأمينات ، وخيل اليها ان تضحيتها لاســعاد «لازار» لم تحقق الهدف منها ..!

وفى ذات صباح من نهــاية شـــهر يوليه ، وبينما كانت «فيرونيكا» مشغولة فى المطبخ ، اذ ب « بولين » تستلم رسالة من « لازار » يقول فيها انه كتبها من مدينة «كان» ، وأنه سوف يصل الى بونفيل بعد ظهر اليوم التالى . وأسرعت «بولين» الى عمها تحمل اليه هذا النبأ. وتبادل الاثنان النظرات طويلا ، وكان العم يخشى أن تنفذ «بولين»

عزمها على الرحيل عن البيت بمجرد وصول «لازار» وزوجته . وكانت هى قد قررت هذا فعلا ، وقالت له انها سوف ترحل عندما يعود «لازار» مع زوجته للاقامة بالبيت ، لانه لن يكون لها مجال بينهما . .

ولكن لشد ما كانت دهشتهما عندما رأيا «لازار» يهبط بمفرده من مركبة «ماليفوار» فى الخامسة من مساء اليوم التالى .. وأسرعت «بولين» للقائه قائلة وهى تقدم اليه وجهها ليقبلها :

ـ عجبا !.. لقد جئت بمفردك !..

وقال بايجاز وهو يقبل وجنتيها بحرارة :

ـ نعم ..

ـ وأين « لويز » ؟!

ـ فى كلير مونت ، مع زوجة شقيقها .. لقد نصحها الطبيب بقضاء بضعة ايام فى مكان جبلى .. انها تعانى كثيرا من حالة حمل

وقالت «بولين» لعمها وهى تدخل مع «لازار» :

ـ عمى .. لقد جاء «لازار» بمفرده ..

فقال العم «شانتو» بقلق :

ـ هل ستحضر «لويز» قريبا ؟!

فأجاب «لازار» قائلا :

ـ لالا .. لسوف امر بها وأصحبها عند عودتى الى باريس .. لسوف أقضى بينكما اسبوعين ، ثم أعود ..

وبذل العم «شانتو» جهده ليخفى سروره وابتهاجه ، ثم تبادل القبلات مع ابنه وهو يقول متظاهرا بالاسف :

ـ كم كنا نتمنى لو جاءت «لويز» معك .. أرجو أن تصحبها فى المرة التالية

وبدأ الاثنان ـ «لازار» و «بولين» ـ يتبادلان النظرات ، كأنما يحاول كل منهما أن يرى ماطرأ على الاخر من تغيير .. والواقع أن الدهشة غمرتهما معا ، فقد دهشت « بولين » حين رأت « لازار » يبدو أكبر سنا من حقيقته ، نحيلا ، معروق الوجه ، مغضن الجبين ... تبدو المرارة بوضوح عند زاويتى فمه ، أما هو فقد دهش وهو يراها وقد بدت اكثر جمالا ، وانضر شبابا ، واقوى جسما .. ومن ثم ابتسم قائلا لها ولابيه :

ـ أرى أنك وأبى تبدوان أصغر سنا وأنضر جسما ..

تم التفت الى «فيرونيكا» التى أقبلت للترحيب به ، وأردف قائلا:

ـ حتى أنت يا « فيرونيكا » أراك أحسن حالا مما تركتك ..

وغمغمت «فيرونيكا» بعبارات غامضة ، تم قالت :

ـ لقد تم اعداد غرفتك ياسيدى .. اصعد واستبدل ملابسك ريثما أعد طعام العشاء ..

وعلى مائدة العشاء ، أخذ «لازار» يسهب فى الحديث عن حياته فى باريس . وقد استطاعت «بولين» بذكائها ، ان تدرك حقائق كثيرة من ثنايا هذا الحديث ..

ادركت ان « لازار » عاد ـ بعد الاسابيع الاولى من الزواج ـ الى حالة التشاؤم والخوف من الموت ، وانه حاول جاهدا ان ينسى نفسه بالاستغراق فى العمل ، ولكنه لم يلبث أن بدأ يشعر بالملل يغلبه على أمره ، ويفعم حياته بالاكتئاب والتشاؤم . ومما زاد حالته سوءا أنه غامر بجانب كبير من ثروة زوجته فى مشروعات فاشلة ، وان هذا كله أدى الى كثرة الشقاق والخلافات بينه وبين « لويز » حتى اصبح كل منهما لا يكاد يطيق عبارة لوم أو عتاب من الآخر !

وهكذا اخذت « بولين » تردد لنفسها فى تلك الليلة ، وهى تتقلب فى فراشها مسهدة :

ـ اذن فقد ضاعت تضحيتى من أجل سعادتهما سدى .. !

***

وأخذت الايام مرة أخرى تمر سراعا ، وانقضى الاسبوعان الاولان دون ان يرحل «لازار» » رغم رسائل زوجته «لويز» التى كانت تشكو فيها من الشعور بالوحدة ، وتعرب عن رغبتها فى حضوره اليها ، أو حضورها اليه .. وقد أجاب على آخر رسالة لها ـ بعد اقامته بأربعة أسابيع ـ قائلا انه سيعود اليها فى خلال اسبوع . ولكن الامطار الغزيرة لم تلبث ان هطلت بعنف شديد ، وراحت العواصف الرهيبة تكتسح الشاطىء وكأنما هى طوفان يدفع امامه البحر واليابسة والسماء وكل شىء ، ويغلفها جميعا بغلالات قاتمة من الضباب ..

وكان «لازار» فى خلال هذه الفترة قد عاد الى الكتابة المسرحية ، وحاول جاهدا ان يفرغ من مسرحيته الاولى « التى سيهز بها مسارح

العالم » وكانت « بولين » تجلس بجانبه الساعات الطوال ، تشجعه وتؤانسه ، وتشغل نفسها بأعمال التطريز واشغال الابرة لصنع جوارب للاطفال الفقراء .. الا أن «لازار» لم يكن يكتب شيئا عندما تجلس «بولين» بجانبه .. وانما كان يستغرق معها فى أحاديث شتى وبصوت هامس ، وبنظرات متبادلة مليئـــة بالشـــوق واللهفـــة والحب المضطرم فى سكون .. ذلك ان الحب الذى ربط بين قلبيهما فى مرحلة الصبا والشباب ، كان قد انبعث من تحت رماد السنين قويا ملتهبا .. تكاد نيرانه تحــرق قلبيهما ، بينما تطل أنواره من أعينهمــا المفعمــة بالسعادة والرضا ..

وكان كل منهما حريصا الا يلمس الآخر أو أن يجعل نيران الحب تجرفهما الى أتون الخطيئة .. ومن ثم كان حسبهما أن يجلسا هكذا الساعات الطوال ، يتبادلان الاحاديث والنظرات ، ويسعدان بالوصال البرىء العذب ، ويتمنيان أن تستمر الحياة بهما الى غاية العمر على هذا النحو .. !

وفى ذات ليلة ، كانت « بولين » جالسة تطرز فى غرفة « لازار » حتى منتصف الليل ، وكان هو قد ألقى بالقلم ، وراح يحدثها عن شخصيات مسرحيته .. وكان الاب نائما .. و « فيرونيكا » كانت قد ذهبت الى فراشها فى ساعة مبكرة من المساء . ونفذ السكون المخيم على البيت الى قلبيهما ، مما جعل « لازار » يفتح صفحات قلبه امام « بولين » ويقول انه ضيع حياته فى الفشل والاوهام ، وأنه اذا فشل فى الكتابة المسرحية ، فسوف يعترف بفشله فى كل شىء بعد ذلك .. وعندئذ لن يكون امامه الا ان ينزوى فى بقعة نائية من العالم مثل بونفيل ليقضى فيها بقية حياته ..

ثم أردف قائلا ، وهو يبتسم فى شحوب :

ـ واذا لم تصلح بونفيل لانزوائى ، فسوف اذهب الى أى مكان اخر فى العالم الواسع ..

وبعد برهة صمت قال :

ـ هل تصدقين اننى فكرت كثيرا فى ان نهجر ـ معا ـ البلاد ، عقب وفاة أمى ..

ـ نهجر البلاد ؟ .. الى اين ؟ ..

ـ الى مكان بعيد ·· الى الهند الصينية مثلا ·· أو جـــزر الهند الغربية .. الى تاهيتى او هاواى .. أو اية جزيرة جميلة حالمة من هذه الجزر ..

ـ ووالدك .. هل كنا سنأخذه معنا ؟

فابتسم وقال وهو يهز رأسه :

ـ كان الامر مجرد فكرة او حلم ·· ومن حق الانسان الفاشـــل مثلى ان يحلم بأشياء جميلة بين الحين والاخر حتى ينسى الحقيقة المرة ..

وغادر مكانه من المنضدة ، ومضى الى مقعدها الوثير ، وجلس على ذراعه .. بحيث أحس بلمسة كتفها الدافىء لفخذه ، هذا بينما قالت هى وكأنما ارادت ان يستطرد فى الحديث عن ذلك الحلم الجميل :

ـ انك عجيب ؟ ·· ماذا كان يمكن أن نفعل فى تلك الجزر ؟

ـ كنا سنعرف كيف نعيش حقا .. أتذكرين كتاب الرحلات ذاك الذى كنا نقرؤه معا منذ سنوات .. منذ اثنتى عشرة سنة او نحـو ذلك ؟.. أتذكرين كيف قرأنا عن الاهالى هناك ، وكيف يعيشـون وكأنهم فى الجنة .. انهم لايعرفون هناك ماهو الشتاء .. والسماء دائما زرقاء صافية .. وتصورى كيف كنا سنعيش دائما فى دفء الشمس وتحت النجوم .. وكيف كان طعامنا سيقتصر على الفواكه ولحم الغزلان .. ثم لاشىء من العمل والكدح بعد ذلك ؟

فابتسمت وقالت :

ـ أى حياة اثنين من الهمج الذين يضعون الحلقات النحاسـية فى انوفهم وآذانهم وريش الطيور فوق رءوسهم !

ـ حسنا ؟ ·· ولم لا ·· اما يكفى ان يحب احدنا الاخر من اول العام الى آخره ؟ ·· أما يكفى أن تمر بنا الايام فلا نحسب لهـــا حسابا ؟

ورفعت وجهها اليه ، وقد بدت عليه صفرة خفيفة .. وطـرفت بأهدابها برهة بعد ان نفذ حديثه عن الحب الى أعماق قلبها ، وملأ نفسها بأعنف الرغبـــات المتعة .. وتنـــاول « لازار » يدها بلا تفكير ، وراح يمسح عليها بيديه فى رفق ، ويطوى اصابعها ويبسطها ويضحك معها دون أن يخطر ببال أحدهما أن هذا كله سوف يؤدى الى شىء . وحاولت هى أن تخفى اضطرابها العاطفى الشديد ، فقالت

بصوت مرتعد :

ـ ولكن الحياة على الفاكهة واللحم لاتكفى .. لابد لنا أيضا من صيد البحر .. ولابد لنا من الخضروات والخبز والنشويات .. أى لابد لنا من ان نفلح الارض .. ويقال ان النساء هناك هن اللاتى يعملن فى الارض ، فهل كنت ترضى أن أقوم بهذا العمل ؟

فنظر اليها فى لهفة وشوق متزايد ، وقال :

ـ أنت ؟ .. بهاتين اليدين الجميلتين ؟ .. لقد نسيت النسانيس ، انها تقوم بالعمل هناك كما يقولون ..

فأرسلت ضحكة خفيفة ، بينما قال هو مداعبا :

ـ وعدا هذا فلن يبقى شىء من يديك هاتين بعد ان آكلهما هكذا ..

وراح يتظاهر بأنه يقرضهما ، بينما كان فى الحقيقة يقبلهما بحرارة دون ان يراهما .. لان دماء الشهوة تصاعدت الى وجهه واعمته عن كل شىء . ولم يقل احدهما شيئا بعد ان استبدت بهما هذه العاطفة الثائرة الرهيبة ، والرغبة الجامحة للاستغراق معا فى لحظات ينسيان خلالها كل شىء . ولم تحاول هى ان تقاوم ، وانما تركت نفسها تنزلق من المقعد الى الارضية وقد احتقن وجهها .. واغلقت عينيها كأنما ارادت الا ترى شيئا .. بينما كانت شفتاه تلتقى بشفتيها فى قبلات محمومة ، وكانت هى تعانقه بقوة مع كل قبلة .. وفجأة فتحت عينيها ، ورات ملامحه الملتوية بالرغبة الجنسية . فبدأت تثوب الى نفسها تدريجيا .. فأرسلت صيحة خافتة امتزج فيها الفزع بالخجل ، ثم هتفت قائلة :

ـ دعنى .. دعنى .. ان هذا شىء فظيع

ولكن « لازار » لم يسمعها لفرط استغراقه فى رغباته الجنسية المضطرمة ، ومن ثم عاد وامسك بها وراح يمطرها بقبلاته الحارة المحمومة فى كل مكان من جسمها .. وكادت أن تستسلم له مرتين ، ولكنها كانت فى كل مرة تستمد من ضعفها قوة ، وتدفعه عنها بعيدا وهى تقول بصوت متحشرج :

ـ لا .. لا .. أرجوك .. دعنى انك تحاول أن ترتكب معى شيئا فظيعا

ولكن « لازار » كان يضغط على أسنانه دون ان يجيب بكلمة ..

ثم يعاود الكرة معها ، فلما شعر أخيرا انه تغلب عليها ، وانها أصبحت طوع بنانه ، اذ به يفاجأ بوثوبها بعيدا عنه بقوة ، ثم اذ هى تندفع هاربة الى غرفتها الواقعة امام غرفته مباشرة ، ثم تغلق الباب بالرتاج من الداخل قبل ان يتمكن من اللحاق بها ..

وظلت ضاغطة على الباب من الداخل حتى تمنعه من اقتحام الغرفة ، وقد أخذت انفاسها اللاهثة تتلاحق بعنف ، بينما كان هو يحاول جاهدا أن يدفع الباب وهو يهمس قائلا :

ـ « بولين » .. « بولين » ! أفتحى الباب .. ارجوك .. أرجوك

وسرت الرعدة فى جسدها ، وأشعل صوته المتوسل النار فى عواطفها .. ورغم انها لم تكن تقل عنه رغبة فيه ، الا انها ظلت متمالكة لقواها ، مصرة على أن تمنعه وتمنع نفسها من ارتكاب شيء يجعل كلا منهما يخجل من مجرد النظر الى الآخر بعد ذلك ..

وعاد « لازار » يقول بصوت متهدج :

ـ انك تريديننى كما أريدك يا « بولين » .. وانت شقية مثلى بالحرمان من هذه اللحظات التى لايتكامل الحب بدونها .. افتحى الباب .. أرجوك .. لماذا ننكر على أنفسنا الحق فى هذه السعادة ؟!

وكان حريصا على جعل صوته خفيضا حتىلايوقظ « فيرونيكا » النائمة فى الغرفة القريبة .. ولهذا كانت توسلاته تصدر بصوت أقرب الى الفحيح منه الى صوت آدمى !

وعاد يقول :

ـ افتحى الباب .. أرجوك .. افتحى الباب .. وليكن بعد ذلك مايكون .. لنمت بعد ذلك .. حسبنا أن نعيش معا لحظات العمر كله .. ألم نتبادل الحب منذ الطفولة ؟ .. أما كان الواجب أن تكونى أنت زوجتى .. لسوف تتحقق هذه الامنية يوما .. نعم .. لأنى أحبك .. أحبك ..

وازدادت رعشة جسمها ، لان كل كلمة كانت تسبب سرعة دقات قلبها وتثير عواطفها وتؤجج نيران رغبتها فى الاستسلام له .. بل كانت لاتزال تحس بقبلاته المحمومة على شفتيها ، وعلى كتفيها .. وفى كل مكان من جسمها .. ومن ثم ظلت تقاوم فتح الباب خشية

أن تلقى بنفسها بين ذراعيه وتستسلم له ..

وكان ثمة سؤال يتردد فى ذهنها كأنه رنين أجراس من بعيد : نعم .. انه على حق .. لماذا تحرم نفسها من هذه السعادة ؟ .. لماذا تعيش معه فى هذه الحالة من الكبت العاطفى ؟ .. لماذا لاتنتهز هذه الفرصة وتضع جسمها بين ذراعيه وتشعر بمعنى الحياة ولو لمدة ساعة واحدة !

وكان « لازار » يقول من الجانب الآخر للباب :

ـ « بولين » .. لا داعى لهذه القسوة .. ردى على على الاقل .. اننى أقف هنا بائسا شقيا .. افتحى الباب .. أرجوك .. لسوف آخذك بين ذراعى وأنسى معك العالم كله ساعات .. أرجوك .. افتحى الباب .. اننى أتوسل اليك ..

وتهدج صوته بالبكاء .. وشرعت هى أيضا تبكى .. وكانت حتى تلك اللحظة لم تنطق بكلمة رغم الثورة العارمة المندلعة فىدمائها .. وظل الحال على هذا المنوال ساعة كاملة .. هو يتوسل اليها من الخارج ، وهى مستندة الى الباب من الداخل بكل قواها ، ممزقة النفس بين نداء العاطفة ونداء العقل ..

ولما تأكدت أخيرا من انصرافه ، اندست بين أغطية فراشها البارد ، وحاولت أن تدع برودته العذبة تخفف من حرارة جسمها الملتهب بالعاطفة .. وبقيت على هذا النحو بلا نوم حتى أسفر الصباح . وعبثا حاولت أن تبرر ماحدث بأنه نزوة طارئة بين رجل مجرب ، وفتاة عذراء ..

لقد أدركت فى تلك الليلة أن حبها المتبادل مع « لازار » لم ينطفىء يوما ، وانما كان مستمرا تحت طبقة من الرماد .. !

وعندما حان موعد الافطار ، هبطت الى الطابق الارضى بعينين مقرحتين من السهد ، وبوجه شاحب هادىء . وأقبل « لازار » دون أن يشير من قريب أو بعيد الى ماحدث فى الليلة الماضية ، وامضيا اليوم كله دون ان يتجنب احدهما الآخر ، وكأنما كانا واثقين من قوة ارادتهما بعد أن هدأت تلك العاصفة التى ثارتأمس فى دمائهما . وعندما صعدا ليلا الى الطابق الثالث للنوم ، وقفا برهة فى الردهة التى تفصل بين غرفتيهما ، ثم اذا هى تلقى بنفسها

بين ذراعيه وتتبادل معه قبلة حارة ، ثم انفصل كل منهما عن الآخر بسرعة ، واندفع الى غرفته ، وأغلق بابها عليه .. كأنما يخشى ان يتكرر ماحدث فى الليلة السابقة ..

وكان ذلك هو الطابع الذى ساد حياتهما منذ ذلك الحين .. الحب المتأجج فىعروقهما ، والسكون البادى علىوجهيهما ، والاقتصار على استمداد المتعة من الحديث الهادىء ، والنظرات المتبادلة ، واللمسات الرقيقة ، والتفاهم الروحى المشترك ..

ورغم هذا كله ، كان كل منهما يخشى أن ينفجر مرجل العاطفة ذات يوم .. وكان يتساءل : ترى متى سيحدث هذا الانفجار ؟.. فى الصباح أم فى الليل ؟! .. فى داخل البيت ام فى خارجه ؟ فى غرفته هو ، أم فى غرفتها هى ، أم فى ركن قصى من أركان البيت ؟ .. ان كلا منهما لايستطيع أن يجزم بشىء .. ولكن كان ثمة شعور مشترك بالاستنكار كلما اختلسا قبلة حارة أو عناقا محموما وراء باب .. وكان هذا الشعور المشترك بالاستنكار ـ بعد كل لحظة من هذه اللحظات ـ هو الصمام الواقى من تكرار ماحدث فى تلك الليلة

كانا يشعران كأن الارض تهتز تحت قوة عاطفتهما .. ولكنهما كانا يتشبثان فى لحظات الهدوء والاتزان بالاصرار على عدم الوقوع فى هاوية الخطيئة . ولكن لم يحاول احدهما أن يلجأ الى الوسيلة الوحيدة التى تنقذهما من هذا الاضطراب .. لم يجد احدهما الشجاعة الكافية للهرب من الآخر ، فـ « بولين » كانت تصطنع الشجاعة النفسية وتواجه الخطر فى تحد عنيف ، وكان « لازار » يحس انه يعيش فى عالم جميل مثير مصنوع من هذا الحب المتيقظ .. وقد بلغ من استمتاعه بهذا اللون من الحياة ، أنه أخذ يهمل الرد على رسائل زوجته الملهوفة الحيرى .. وهكذا كان الاثنان يتمنيان أن تستمر بهما الحياة على هذا النحو ، رغم كل مافيها من كبت جنسى ، وحرمان من متعة الزواج .. !

وفى مساء يوم أحد ، كان الجميع يجلسون حول مائدة العشاء فى حالة من الابتهاج والغبطة والسرور .. وقد تجرأ العجوز « شانتو » وشرب كأسا من الخمر غير حافل بما قد يناله فى اليوم التالى من آلام النقرس . وفى ذلك اليوم ، كانت « بولين » و « لازار » قد

خرجا منذ الصباح ، وأمضيا سحابة اليوم على الشاطىء فى لهـو برىء ، وفى سباق للسباحة .. وفيما كان الثلاثة يضحكون ابتهاجا وغبطة ، اذ ب « فيرونيكا » تقبل من باب المطبخ وتقول :

ـ لقد وصلت السيدة ..

فتساءلت « بولين » بدهشة قائلة :

ـ أية سيدة يا « فيرونيكا » ؟

ـ السيدة « لويز » طبعا !



الفصل الثالث عشر

بعث الحياة ..

وخيم الصمت برهة على الجميع ، ونظر العجوز « شانتو » فى جزع الى « لازار » و « بولين » اللذين شحب وجهاهما فجأة ..
وأخيرا نهض « لازار » وقال غاضبا :

ـ ماذا ؟ .. أتقولين « لويز » ؟ انها لم تخبرنى بهذا .. لقد طلبت منها الا تحضر مهمـا يكن السـبب .. لاشك انها فقدت عقلها .. !

وسار الى الخارج ، ووراءه « بولين » التى كانت تحـاول أن تسترد حالتها الطبيعية من المرح والاتزان . وهناك ـ فى الشرفة ـ رأيا « لويز » وهى تحاول الهبوط من مركبة « ماليفوار » ..

وصاح بها « لازار » قائلا :

ـ هل جننت ؟ .. كيف تفعلين شيئا كهذا دون أن تكتبى الى ؟

وانفجرت « لويز » باكية ، وقالت :

ـ اننى لم افعل هذا الا بعد أن امتنعت عن الرد على خطاباتى ، وبعد أن كاد الملل يقتلنى ، هذا فضلا عن شوقى الشـديد لرؤية بونفيل مرة اخرى !

ثم أردفت قائلة وهى تمسح دموعها :

ـ وكنت أريد أيضا أن أفاجئكم بهذه الزيارة .. !

فقال « لازار » :

ـ لا .. لا .. هذا لا ينبغى ان يكون .. ان الحياة هنا لاتلائمك .. يجب أن ترحلى غدا ..

وفوجئت « لويز » بهذا الاسـتقبال الذى لم تكن تتوقعـه ، فاضطربت وسقطت فى شبه اغماء بين ذراعى « بولين » ..

وماكادت « بولين » تحس ببطن « لويز » المنتفخة بالحمل ، حتى اشتعلت نيران الغيرة فى قلبها .. ولكنها لم تلبث أن تغلبت على الشعور ، ثم قالت :

ـ كيف تعامل زوجتك هكذا يا « لازار » ! هلم قبلها .. وأنت ياعزيزتى « لويز » .. اذا كنت تعتقدين أنك ستكونين أسعد حالا بالاقامة فى بونفيل ، فعلى الرحب والسعة .. فأنت تعرفين أننـا جميعا نحبك .. أليس كذلك ؟

ومضى الجميع الى الداخل ، واتخذت « لويز » مكانها الى مائدة الطعام ، بينما كان العجوز « شـانتو » يقول ضـاحكا ليخفى اضطرابه :

ـ اذن فقد أردت أن تفاجئينا بهذه الزيارة ياعزيزتى « لويز » !

. حسنا .. حسنا .. لقد كانت مفاجأة فعـلا ، حتى كدت أن أبتلع الشوكة بدلا من شريحة اللحم !

وأمضى الجميع السهرة فى هدوء بعد أن استردوا طبيعتهم المرحة .. ولما حان موعد الصعود للنوم ، قالت « فيرونيكا » لـ « لازار » و « لويز » :

ـ لقد أعددت غرفة سيدتى الراحلة لنومكما معا ..

ومرت لحظة من الارتباك ، قال « لازار » بعدها :

ـ لا .. لا .. اننى أفضـل أن تنام « لويز » بمفردها حتى لا أزعجها ..

وقالت « لويز » فى غير غضب :

ـ أجل .. أجل .. نم أنت فىغرفتك بالطابق الثالث يا « لازار » .. وأنا فى الواقع أشد ما أكون احتياجا الى غرفة مستقلة ..

***

ومرت ثلاثة أيام كانت « بولين » خلالها تحاول جاهدة أن تقتل سموم الغيرة فى قلبها كلما رأت « لازار » و « لويز » يعيشـان معا أمامها كزوجين .. ورغم ماكان يحدث من منازعات وخلافات يومية بينهما ، الا أنها لم تستطع ان تنسى أن « لازار » حبيب العمر ، هو الزوج الذى انتزعته « لويز » منها ليكون أبا لابنائها .. ومن ثم قررت أن ترحل عن البيت فى يوم الاثنين التـالى كى تلتحق

بخدمة السيدة الثرية التى كانت فى انتظارها بمدينة سانت لو

ولما علم الجميع بهذا القرار ، استبد بهم الحزن .. حتى « لويز » نفسها ، أعربت عن أسفها والمها ، وقالت انها كانت تتمنى أن تبقى « بولين » بجانبها ، لانها لن تجد فى الحياة صديقة أكثر وفاء واخلاصا وطهارة قلب منها ..

وفى تلك الليلة التى أعلنت فيها قرارها ، صعدت « بولين » الى غرفتها بعد أن فرغوا من تناول العشاء ــ وبعد أن نام العجوز « شانتو » ــ وبعد أن أوت « لويز » الى مخدعها .. لحق « لازار » بـ « بولين » فى الردهة القائمة بين غرفتيهما ، وهناك قال لها :

ــ هل تسمحين بأن أودعك ؟

فضحكت وقالت :

ــ لا .. ليس الوداع الليلة ، فانى سأرحل فى يوم الاثنين القادم !

ونظر كل منهما الى الآخر برهة ، ثم اذا هما يتعانقان بحرارة ، واذا الشفاة تلتقى فى قبلة طويلة محمومة .. !

***

وفى صباح اليوم التالى ، وبينما كان الجميع ــ ماعدا « لويز » ــ جالسين الى مائدة الافطار ، اذا بـ « لويز » تبدو على درجات السلم وهى فى حالة اعياء شديدة ، وتقول بصوت متوجع :

ــ « لازار » .. اننى لم أنم لحظة طيلة الليلة الماضية .. ولست أدرى ماذا بى ؟ فانى لازلت فى الشهر الثامن ومع ذلك أشعر أنى على وشك الوضع .. !

ونهض « لازار » بسرعة قائلا :

ــ هل استدعى مدام « بولاند » القابلة ؟!

ــ نعم .. نعم .. وبسرعة ..

ولما أقبلت مدام « بولاند » القابلة المجربة ، قالت بقلق بعد أن فحصت حالة « لويز » :

ــ انها على وشك الوضع فعلا ، والحالة خطيرة .. لابد من استدعاء الدكتور « كازينوف » ..

وفيما كان « لازار » يستدعى الطبيب ، أخذت القابلة تعد كل شىء ، وكانت « لويز » قد بلغت ذروة الشعور بالالم ، وبدأت

صيحات توجعها تتردد في البيت .. وبعد نحو ســاعة ، خرجت القابلة من الغرفة فى شيء من الفزع ، وقالت لـ « بولين » الجزعة :

ـ ان الحالة خطيرة جدا .. لقد خرجت ذراع الجنين ، ولكن الكتف محشور ، وأرجو أن يأتى الطبيب فورا ، لان السيدة فى حالة اغماء الآن ..

وفى نحو الساعة الثالثة ـ وكان القلق قد استبد بالقابلة خشية أن تفقد « لويز » حياتها ـ أقبلت « فيرونيــكا » الى « بولين » وقالت ان الدكتور « كازينوف » قد وصل أخيرا مع « لازار » وانه يستعد للصعود الى « لويز » ..

ووقفت « بولين » مع « لازار » فى الطابق الارضى بعد صــعود الطبيب الى « لويز » وخيم الصــمت الرهيب على البيت ، وكان العجوز « شانتو » قد استغرق فى النوم على مقعده ، وبقايا طعــام الغداء لاتزال أمامه . وقالت « بولين » لـ « لازار » هامسة :

ـ هل نوقظه ونخبره بالامر ؟

فهز « لازار » رأسه وقال :

ـ لا .. لاداعى .. دعيه يستمتع بهذه اللحظات من النوم .. ان المسكين قلما ينام هكذا بعمق ..

ومرت اللحظات رهيبة قاسية ، ولم يسمع الاثنان شيئا مما كان يدور بالطابق الثالث .. لم يسمعا صراخا ، ولا مقاومة ، ولا آهات توجع . وأخيرا هبط الدكتور « كازينوف » بوجه شاحب ، فنظر « لازار » اليه بجزع وقال له :

ـ ماذا حدث ؟! ..

ولم يجب الطبيب فورا ، وانما جلس على أقرب مقعد ، ووضع رأسه بين يديه ، وأخيرا قال بصوت مضطرب :

ـ اننى لم أفعل شيئا حتى الآن ، ولا أريد أن أفعل شيئا دون استشارتك ..

ومسح بيده على جبينه كأنما يحاول أن يجد حلا لمشكلة معقدة ، هذا بينما كان « لازار » يقول :

ـ ولكن الامر كله يتوقف عليك يادكتور « كازينوف » .. اننــا ندع « لويز » بين يديك ونحن واثقون تماما من قدرتك على مواجهة الموقف ..

فهز الطبيب راسه وقال بصوت ملؤه الالم والحزن :

ـ يجب أن أكون صريحا معك .. ان الحالة تبدو الآن ميئوسا منها بالنسبة للام والجنين معا .. ولكن هناك أملا ضئيلا فى امكان نجاة أحدهما

وندت عن « بولين » صيحة جزع ، وتسمر « لازار » فى مكانه ، وفتح العجوز « شانتو » عينيه ببطء وقد أحس بأن شيئا ما يجرى بالقرب منه ، هذا بينما استطرد الطبيب قائلا :

ـ وعليك يا « لازار » أن تقرر الآن : أيهما أعمل على انقاذه .. الام أم الجنين ؟

فصاح « لازار » فى يأس :

ـ أيهما ؟! اننى لا أدرى .. فهذه زوجتى .. وهذا ابنى .. اننى لا أستطيع أن أقرر شيئا كهذا ..

واختنق صوته بالدموع .. وأخذت « بولين » تنظر الى الرجلين بوجه ممتقع ونظرات مفعمة بالحيرة والخوف .. أما الطبيب فقد عاد يقول :

ـ يمكن انقاذ الام على حساب الجنين ، ويمكن انقاذ الجنين بعملية قيصرية .. ولكن حالة الام الآن لن تسمح لها باحتمال هذه العملية والحياة بعدها . ولهذا أرى أنك يا « لازار » الشخص الوحيد الذى من حقه أن يقرر أيهما أعمل لانقاذه على حساب الآخر !

ولم يستطع « لازار » أن يقول شيئا لفرط اختناقه بالدموع ، ومن ثم هتفت « بولين » قائلة فى حرارة وانفعال :

ـ لماذا جئت الينا الآن يا دكتور « كازينوف » ؟ ان واجبك هناك ، فى غرفة المريضة ، وأنت أدرى منا بما يجب أن تفعل .. فلماذا تسألنا ؟

وفى تلك اللحظة أقبلت مدام « بولاند » القابلة وقالت ان الحالة تزداد سوءا ، ثم اردفت قائلة :

ـ هل استقر الرأى على شىء ؟

وفجأة القى الدكتور « كازينوف » ذراعيه حول « لازار » وقال بصوت كله العطف والاشفاق :

ـ اسمع .. لسوف أبذل كل مالدى من خبرة وجهد لانقاذ الاثنين ، واذا هزمتنا الاقدار ، فسوف أكون أكثر منك حزنا ، لانى سأعتبر ماحدث خطأ منى

وتم اعداد كل شيء فى الغرفة الكبيرة التى كانت خاصة بالراحلة مدام « شانتو » ، وأوقدت « فيرونيكا » النار فى المدفأة ، وأضاءت المصابيح ، وأعدت الماء الساخن وزجاجة الشراب ، وتعاونت القابلة مع الطبيب على تهيئة « لويز » فى الوضع المناسب لاجراء العملية غير الجراحية ..

وقال الطبيب لـ « لويز » مشجعا :

ـ اسمعى ياطفلتى العزيزة .. أرجو أن تثقى بى وأن تتأكدى أن حياتك عزيزة علينا جميعا ، ولهذا فانى واثق بأنك سوف تساعدينى فى عملى بقدر الامكان ..

وبدا أن « لويز » لم تسمع شيئا .. ولكنها لم تلبث أن فتحت عينيها حين فاجأتها نوبة ألم ، وصاحت قائلة :

ـ اقتلونى .. اقتلونى فورا .. اننى أفضل الموت على هذه الآلام !

وقالت « بولين » للطبيب هامسة :

ـ أرجوك أن تسرع فى العمل .. فنحن هنا معك لنتحمل كل مسئولية عنك ..

وبدأ الطبيب صراعه ضد الموت ..

وكان صراعا عنيفا قاسيا .. لقد صارع الموت من قبل مئات وآلاف المرات فوق السفينة التى كان يعمل عليها ، وفى مختلف الاماكن التى كانت السفينة ترسو فى موانيها ، ولكنه كان يحس فى تلك اللحظات أن صراعه مع الموت لانقاذ « لويز » والجنين معا ، يختلف عن كل صراع سابق ..

كان راكعا أمام « لويز » وكانت كل من « بولين » والقابلة تمسكان بقوة باحدى ساقى « لويز » حتى لاتتحرك بعنف عندما تفاجئها نوبة ألم الوضع ، وكانت « لويز » ـ من فرط الالم والاعياء ـ لاتكاد تدرى بما يجرى ، وانما كانت تشعر فقط كأن هناك من يمزقها الى نصفين بلا رحمة !

ولما استطاع الطبيب أخيرا أن يعيد الجنين الى وضعه الطبيعى ، نهض ومسح العرق عن وجهه وقال بصوت كله تفاؤل :
ـ أعتقد ان الامل أصبح كبيرا الآن فى انقاذ الاثنين .. وكل ما أخشاه أن يختنق الجنين اذا لم نبادر الى اخراجه الآن ..
وعاد الى « لويز » واستأنف عمله وهو يقول :
ـ لاتشدى أعصابك وعضلاتك ياطفلتى .. ساعدينى قليلا وسوف ترين الى أى حد من السهولة سوف ينتهى الامر
وقبلتها « بولين » فى جبينها وهى تقول :
ـ ياحبيبتى المسكينة .. لقد أوشكت آلامك أن تنتهى .. تجلدى لحظات أخرى ..
ومرت اللحظات بطيئة رهيبة .. وتأزم الموقف أكثر من مرة ، وسكنت عضلات « لويز » وهمد جسمها فى اللحظات الاخيرة حتى ظن « لازار » أنها ماتت .. ومن ثم لم يسعه الا أن ينزوى فى أحد أركان الغرفة ويخفى وجهه وهو لايدرى ماذا يفعل ..
وفجأة سمع الطبيب يقول وهو يتنهد :
ـ أخيرا وصل المولود العزيز .. من حقه ان يفخر فيما بعد بأنه لم يدخل الدنيا ببساطة ..!
وفى خلال هذه اللحظات الحاسمة المشحونة بالانفعالات المختلفة لم يحاول احد ان يسأل عن نوع المولود ، ولكن القابلة مدام «بولاند» لم تلبث ان قالت :
ـ انه مولود ذكر ..
وانفجر « لازار » باكيا وهو يهمس :
ـ ما فائدة هذا كله ؟.. مافائدة خروج هذا المسكين الى حياة مصيرها فى النهاية العدم بعد الفشل والعذاب والالم ؟!
ويبدو ان احدا لم يسمعه ، لان الطبيب والقابلة استأنفا العناية بالام ، بينما ذهبت « بولين » الى « لويز » وقبلتها مرة أخرى وهى تقول :
ـ لقد انتهت آلامك الآن ، وسوف تنسين كل شىء بعد لحظات عندما تضمين ابنك العزيز الى صدرك ..!
وانثنت الى « لازار » قائلة :

ـ تعال وقبل « لويز » مهنئا يا « لازار »

ومضى « لازار » الى زوجته ، ولـكنه ارتعد بعنف حين رأى وجهها الشاحب الفارق بالعرق .. وخطر له أنها فارقت الحياة ، ومن ثم أسند رأسه الى الجدار وعاد الى البكاء ..

اما الطبيب فقد قال للقابلة بصوت هامس سمعته « بولين » :

ـ اعتقد ان المولود ميت .. اربطى له الحبل السرى بسرعة ..

والواقع ان المولود لم يطلق الصرخة المعتادة عندما خرج الى الحياة وكان لون جسمه مربدا مليئا بالكدمات فى مواضع مختلفة ، كما بدا صغيرا رغم كبر حجم الرأس

وقالت « بولين » التى كانت تنصت الى حديث الطبيب :

ـ اعطنى المولود .. ودعنى أحاول معاونته على التنفس

وحملت المولود الى الغرفة المقابلة بعد ان اخذت معها زجاجة البراندى وبعض الملابس والاقمشة القطنية

وفى الغرفة ، دارت معركة اخرى ضد الموت .. فبينما كان الطبيب والقابلة يبذلان كل جهد ممكن لمعاونة « لويز » على الخلاص من بقايا الوضع ، كانت « بولين » تحاول جاهدة بعث الحياة فى جسم المولود ..

لقد وضعته بجوار المدفأة ، وركعت بجانبه ، وراحت تدلكه ـ فى رفق شديد ـ بقطعة كبيرة من القماش الناعم المشبع بالكحول . وظلت تقوم بهذا العمل فى اصرار وعناد حتى شعرت بالخدر يسرى فى ذراعيها ، وبالارهاق يكاد يغلبها على امرها .. وكانت جد حريصة على الترفق فى التدليك خشية ان تقضى على البقية الباقية من الحياة الكامنة فى جسم المولود .. ولهذا كان تدليكها أقرب مايكون الى تحريك ريشة ناعمة لجناح طائر على الجسم الرقيق ..

وكان لهذا التدليك المستمر أثره فى بعث الدفء قليلا فى جسم المولود .. ولكن الصدر ظل على انطباقه ، دون ان تبدأ عملية التنفس .. بل لقد ازداد لون الجسم اربدادا لحرمانه من الهواء

وبكل شجاعة وضعت « بولين » فمها على فم المولود الساكن ، وراحت ترسل الى رئتيه انفاسا طويلة بطيئة .. وكلما احست أنها توشك أن تختنق ، توقفت قليلا لتستريح ، ثم عادت الى بعث الانفاس

فى الرئتين الخاملتين ..

واستمرت « بولين » فى عملية بعث الحياة الى جسم الطفل المولود نحو ساعة .. وكلما شعرت بالتعب ، استمدت من تصميمها قوة ، واستأنفت صراعها ضد الموت المتربص .. واخيرا جـــدا ، شعرت باختلاجة دقيقة فى شفتى المولود ، ثم اذ بحركة صغيرة تبـدو على صدره .. ثم اذ ما يشبه الموجة الدقيقة تسرى فى جسمه ، واذ هو فى النهاية يطلق صيحة الحياة

ولمـا جاء الطبيب وعرف ما حدث ، قال لـ « بولين » :

ـ ان هذا الطفل يا « بولين » مدين لك بحياته .. لقد اخرجته أمه الى الحياة شبه ميت ، ولـكنك انت التى بعثت فى جسمه الحياة !



الفصل الرابع عشر

حب الحياة

كان الجو رهيبا طيلة شهر مايو ، ثم اقبل شهر يونيه بجو صحو وايام مشمسة دافئة .. وكانت الاسابيع الثلاثة السابقة عليه ، مليئة بالعواصف والرياح الهوجاء والامواج المكتسحة لكل شيء على الشواطيء القريبة ، والقوارب الغارقة ، والقتلى من الناس .. وفجأة هدأ كل شيء ، وسطعت الشمس ، وصفت صفحة السماء ، وبدا البحر كأنه بحيرة زرقاء ناعمة رقيقة

وبعد ظهر ذات يوم ، قررت « بولين » ان تدفع بالعجوز « شانتو » على مقعده المتحرك الى الشرفة الكبيرة ليستمتع بهذا الجو الجميل بجوار حفيده الصغير الراقد على « بطانية » .. وكان الصغير «بول» ابن « لازار » ، قد بلغ شهره الثامن عشر ، وكانت « بولين » تعنى به وتدلله وترعاه كما تفعل عادة مع جده العجوز ..

وقالت للجد بصوت كله حنان :

ــ هل تحب الجلوس فى الشمس ياعمى ؟

ــ نعم .. نعم .. يخيل لى أنى لم أرها منذ اجيال .. هل ستتركين « بول » نائما فى موضعه هذا !

ــ أجل .. ان الهواء الطلق مفيد له جدا

وركعت بجوار الطفل .. وراحت تتأمل ذراعيه وساقيه العاريتين ووجهه المتورد المتجه نحو صفحة السماء ، ثم قالت بابتهاج :

ــ انه مستغرق فى النوم .. لابد انه تعب من الهدهدة .. أرجو ياعمى الا تدع القطة تزعجه

ثم حركت اصبعها للقطة مينو محذرة ، ولكن هذه كانت مشغولة عنها وعن الطفل بتنظيف فرائها ..

وفيما كانت « بولين » تهم بالنهوض ، سمعت آهة توجع من العم العجوز ، فقالت له فى اشفاق :

ـ هل عاودتك الآلام .. ؟

فقال الرجل :

ـ عاودتنى ؟.. وهل هى تتركنى لحظة ؟

وكان العجوز فى الواقع قد تصلب جسمه كله ، ولم يعد فيه شيء يتحرك سوى عنقه ، وكان النقرس قد ترك اثاره المزمنة على يديه وقدميه ، حتى بدت كلها معقدة ملتوية مليئة بالنتوءات الطباشيرية ، عاجزة عن الحركة تماما . وكانت « بولين » هى التى تطعمه وتسقيه بيديها بعد ان غدا عاجزا حتى عن رفع الطعام والشراب الى فمه !

اما الالم ، فلم يعد يتركه لحظة .. ولكن الالتهاب كان يزداد عند أقل تغيير فى حرارة الجو ، وعند شربه أقل جرعة من الخمر ، أو تناوله أصغر شريحة من اللحم ..

وقالت له « بولين » :

ـ هل تحب ان آتى لك بكوب من اللبن ؟ انه سينعشك ..

قال بين آهتين من التوجع :

ـ اللبن ؟ .. هل هو علاج جديد ؟ اننى افضل الالم على شرب اللبن ..

فابتسمت « بولين » وربتت على وجهه ، ثم قالت :

ـ سأعود الآن الى المطبخ حتى لايحترق الحساء ..

وقبل ان تعود ، سمعت « لويز » وهى تناديها من نافذة غرفتها بالطابق الثانى :

ـ بولين . اذا كان « لازار » عندك فأرسليه ..

فردت « بولين » قائلة :

ـ لا .. انه لم يأت بعد ..

وثارت أعصاب « لويز » وقالت :

ـ انا اعرف اننا لن نراه قبل حلول الليل ، هذا اذا فكر فى الحضور الليلة .. لقد أمضى الليلة الماضية فى الخارج رغم انه وعد بالحضور فورا . انه حين يذهب الى « كان » لايستطيع انتزاع نفسه من مياهها ..!

فقالت « بولين » محاولة تهدئتها :

ـ لعل مشروع آلات السماد هو الذى عطله ، وربما يحضر الان فى مركبة الطبيب !

وكان «لازار» و « لويز » منذ قررا الاقامة فى بونفيل ، لا يكفان عن « المناقرة » التى قد تبلغ احيانا حد الخلافات العاصفة . وكانت « بولين » تقوم دائما بمهمة حمامة السلام ، فتهدىء من ثائرتهما ، وتصلح مابينهما ، وتحاول جاهدة ان تجعل الحياة تمضى هادئة لينة معهما . .

وعدا هذا كانت « لويز » تنفر من اعمال التدبير المنزلى ، فتتركها كلها على عاتق « بولين » . . ومن ثم كانت حالة الفراغ التام التى تعيش فيها ، تثيرها وتوتر أعصابها ، وتجعلها تضخم كل خلاف يقع بينها وبين زوجها . .

وقالت لها « بولين » اخيرا :

ـ يحسن ان تصففى شعرك يا « لويز » وترتدى الملابس المناسبة لان الاب « هورتيير » يوشك أن يحضر ، واحب ان تجلسى معه حتى افرغ من اعداد الطعام

ولكن « لويز » قالت بنفس اللهجة الثائرة :

ـ كيف يغيب « لازار » كل هذه المدة فى « كان » . لقد ارسل ابى الى خطابا يؤكد لى فيه أنه سيمنعه من تنفيذ مشروع آلات السماد حتى يحفظ لى البقية القليلة الباقية من ثروتى . .

وكان « لازار » فى الواقع قد بعثر الجانب الاكبر من ثروة زوجته « لويز » على مشروعين آخرين فاشلين . وقد حفزها ذلك على استثمار الباقى من ثروتها فى مشروع للتأمين لصالح الطفل « بول » بحيث يستطيع أن يحصل على مائة الف فرنك عندما يبلغ الحادية والعشرين من عمره

ولما اوشكت « لويز » ان تستطرد فى حديثها الغاضب ، قالت لها « بولين » لتغير مجرى هذا الحديث :

ـ هلمى ياعزيزتى « لويز » . . اهبطى سريعا ، فانى لا ادرى ماذا حدث لـ « فيرونيكا » ، ولا كيف تتركنى بمفردى فى مساء يوم سبت كهذا . . لست أدرى لماذا تأخرت حتى الآن فى العودة من القرية . .

وكانت غيبة « فيرونيكا » لغزا حير الجميع .. فبعد أن أعـــدت الخضراوات للطهو ، ونظفت البطة ، وجهزت اللحم ، اذ بهــا تختفى بعد أن قالت انها ذاهبة الى القرية لامر ما ..

وقالت « لويز » فى دهشة :

ـ ألم تعد « فيرونيكا » بعد ؟

فأجابت « بولين » قائلة :

ـ لا .. هل أخبرك برأيى فى سر غيبتها ؟ .. حسنا .. لقد دفعت فرنكين ثمنا للبطة التى اشترتها من بائعة جوالة ، وأذكر أنى قلت لها انها تباع فى سوق البلدة بفرنك ونصف فقط ، وعندئذ ارسلت الى احدى نظراتها الساخطة ، وأكبر ظنى انها ذهبت الى سوق البلدة لتسأل عن ثمن بطة مماثلة ، ولترى هل انا كاذبة أم صادقة !

وكانت «بولين » تضحك اثناء الحديث ، ولكن ضحكها لم يكن يخلو من الاحساس بالالم لان « فيرونيكا » عادت الى طبيعتها الاولى ، واصبحت تعاملها بعداء ونفور ، ولا تكف عن الترحم على أيام مدام «شانتو»التى لن تعود ..

وقالت « لويز » ردا على حديث «بولين» :

ـ الحقيقة اننا لا ندرى ماذا دهى « فيرونيكا » .. لقد مضى عليها أسبوع الآن وهى متجهمة ، لا تطيق أن يحدثها أحد أو تتحدث الى احد . ولهذا فلا يستبعد ان ترتكب أى نوع من الحماقات

فهزت «بولين» كتفيها وقالت :

ـ انها فى الواقع مسكينة ، ولا بأس من أن ندعهــا ترضى بعض نزواتها بين الحين والآخر .. ولا شك أنها سوف تعود عاجلا أو آجلا .. والى أن يحدث هذا فلن نموت جوعا !

وهنا تململ الطفل على السجادة ، فأسرعت « بولين » اليه قائلة وهى تنحنى عليه برفق :

ـ ماذا بك يا حبيبى ؟ ..

وراقبتها «لويز» برهة قبل ان تختفى من النافذة ..

واقبل «لازار» أخيرا .. وبعد أن حيا والده وقبله ، صعد فورا الى غرفة زوجته حين سمع نداءها الغاضب عليه ، ولم يلبث الاب « هورتيير » أن حضر ، ثم تبعه الدكتور «كازينوف» كالمعتاد فى مساء

يوم السبت من كل أسبوع .. ولما نظر الى العجوز « شـــانتو » فاحصا ، قال له :

ــ هل تشعر بألم شديد يا «شانتو» ؟

ــ آه .. طبعا .. طبعا .. لقد ظننت أن الشمس بعـــد الظهر ستفيدنى ، ولكننى أشعر الآن بالتهاب شديد فى مفصل قدمى ..

وفحص الطبيب أصابع المريض العجوز ، بينما قال الاب«هورتيير» محاولا المزاح :

ــ ان أصابعك يا عزيزى «شانتو» لم تعد صالحة للعب الشطرنج معى ..

وقال الطبيب :

ــ يجب أن تكون شديد الحذر فيما تأكل هذه الايام يا «شانتو» .. ان مفصل ذراعك ينذر بالسوء ..

فقال العجوز متوجعا :

ــ كيف أكون أكثر حذرا و «بولين» هى التى تطعمنى وتسقينى حسب تعليماتك

فابتسمت «بولين» وقالت :

ــ نعم .. نعم .. ولكنك أكلت أمس اكثر مما ينبغى .. وهـــذه غلطتى ، لاننى لم أستطع أن أمنع نفسى من اعطائك ما اشتهيت أن تأكله وتشربه

وتوقفت برهة ، ثم أردفت تقول وكأنما تذكرت شيئا :

ــ وبهذه المناسبة ، ألم يقابل أحد منكما « فيرونيكا» ؟

وبعد أن أخبرت الجميع بأمر اختفاء « فيرونيكا » الغامض،أردفت قائلة :

ــ لسوف أترككم الآن ، لانى المسئولة عن المطبخ حتى تعـــود هذه الحمقاء ، واذا تركت الحساء حتى يحترق أو قدمت البطة قليلة النضج ، فسوف اتلقى انذارا بالفصل من عمى فورا !

وأرســـل الاب « هورتيير » ضحكة عالية ، وابتسم الدكتـــور « كازينوف » ؟ ثم اذ بأصوات المشادة الكلامية تعلو فى الطابق الثانى ، بحيث كان فى مقدور الجالسين فى الطابق الارضى ــ بـل و «بولين» فى المطبخ ــ ان يسمعوا هذه الاصوات الحادة المنطلقة بالعبـــارات القاسية ..

وحاولت «بولين» أن تخفى هذه الاصوات بصلصلة الاوانى والاوعية التى أخذت تضعها على مائدة العشاء .. ولكن ضجيج الشجار ظل يزداد ، وظل يملأ قلب «بولين» بالالم .. ومن ثم صعدت اليهما لتقوم بواجبها ، ولتؤدى رسالتها التى تدور حول نشر السعـــادة على الجميع ..

وقالت لهما وهى تدخل الغرفة :

ـ يا عزيزى .. قد تقولان ان هـذا ليس من شـــأنى ، ولـكن أصواتكما عالية جدا ، وعباراتكما قاسية جدا .. وليس هنـــاك ما يدعو لان تشقيا حياتكما على هذا النحو ، وتزعجا جميع المقيمين معكما فى البيت ..

ثم تقدمت واغلقت النافذة التى كانت الاصوات تنتقل عبرها ، هذا بينما كان الزوجان يستطردان فى شجارهما ، وكأنما لم يسمعا كلمة واحدة من حديثها .. !

ووقفت برهة ساكنة وهى تشعر بنوازع خفية من الالم منـــذ أن وجدت نفسها فى غرفتهما هذه .. فى مخدعهما الذى يضم جسديهما ليلة بعد ليلة فى فراش واحد ، وتحت غطاء واحد ..

ونظرت الى الســـتائر الحـــريرية الخضراء والاثاث الوردى ، والاغطية المخملية ، وشمت عطر الهليوتروب الفواح فى جميع أنحـاء الغرفة ، وتأملت ادوات الزينة فوق منضدتها ، وبعض الاشياء الصغيرة التى لا يمكن أن توجد الا فى غرفة زوجين ..

وسرت فى بدنها رعدة .. نفس رعدة الغيرة القديمة التى اعتادت أن تسرى فى جسدها كلما وقعت عيناها على ما يذكرها بما بين «لازار» و «لويز» من علاقات جنسية مشروعة !

ولكنها تمالكت نفسها بسرعة ، وقالت :

ـ كيف يعمل كل منكما على تعذيب الآخر هـــكذا ؟! .. الا تعقلان ؟ ..

وصاحت «لويز» :

ـ لقد فاض بى الامر .. اتعتقدين أنه سيعترف بخطئه . لا .. انه يعتقد أن الناس جميعا مخطئون وهو فقط على صواب . لقـد انقض على بأقذع العبارات لانى عاتبته على غيابه فى «كان» ، واتهمنى

بأنى أفسدت حياته وحرمته من كل متعة حقيقية فيها ، ولهذا فهو يهددنى بالهرب الى أمريكا الجنوبية ..

وقاطعها «لازار» قائلا :

ـ لو أنك عاتبتنى هكذا برفق ، لاعتذرت اليك وقبلتك وانتهى الامر .. ولكنك أخذت تتهميننى بأنى أفسدت حياتك، وملأتها بالشقاء، وهددتنى بالقاء نفسك فى البحر اذا استمر الحال بيننا على هذا المنوال ..

ثم اشتبك الاثنان مرة أخرى فى مشادة عنيفة ، وأخذ كل منهما يتهم الآخر بافساد حياته ، ويلعن اليوم الذى قبل فيه الزواج من الاخر ، وكانت «لويز» رغم رقتها الظاهرية ، لاتتردد فى القذف بأقذع العبارات الموجعة ، وكان « لازار » يستمد من مثل هذه المشادات لونا من الاثارة والانفعال اللذين يخرجانه من سأمه الى حين

وأخذت «بولين» تنصت اليهما برهة ، وهى تشعر بالالم من أجلهما ، وبالعجز عن فهم نوع حبهما الذى جعل كلا منهما يتزوج الآخر .. فاذا كان قد تبادلا الحب والرغبة فى الزواج ، فلماذا اذن يتقاذفان بأقسى العبارات على هذا النحو ، ولماذا ينتهزان كل فرصة لشحن حياتهما بالالم والعذاب ؟

وازداد احساسها هى بالالم لانها كانت تعتبر نفسها المسئولة الوحيدة عن زواجهما .. كانت ترى ان مسئوليتها هذه تحتم عليها أن ترعى هذا الزواج ، وان تشعر بأن تضحيتها بنفسها لم تذهب سدى .. !

وقالت «لويز» لـ «لازار» :

ـ اننى لا ألومك على بعثرتك لثروتى فى مشروعات خيالية فاشلة ..

فصاح «لازار» :

ـ هذا آخر ما كنت أتوقع أن أسمعه .. وما ذنبى أنا اذا كنت قد وقعت ضحية للخداع والاحتيال !

ـ ان الاحمق فقط هو الذى يقع ضحية للاحتيال والخداع .. وعلى كل حال فقد هبطت مستوى معيشتنا حتى لم نعد قادرين على الحياة الا فى هذه القرية المنعزلة عن العالم .. وكل ما أخشاه أن يأتى اليوم

الذى لا نجد فيه القوت الضرورى .. !

وقال « لازار » متهكما :

ـ هذا هو نفس حديث أبيك معى أمس .. أستمرى .. ومن يدرى ، فلعلك كتبت اليه رسالة تطالبينه فيها بالعمل على عرقلة مشروع آلات السماد ، وهكذا تفسدين أعمالى دون أن أدرى .. أما عن الاقامة هنا ، فهذا أمر لا مندوحة عنه ..

فهتفت قائلة :

ـ هذا يعنى أنى سأدفن شبابى كله فى هذا الجحر ،لا . .مستحيل، اننى لن أفعل هذا من أجلك أو من أجل ابننا .. اننى سأنتظر قليلا، ثم أرى ماذا ستفعل .. فاما أن تغير مجرى حياتك هذا أو ..

وهنا تدخلت «بولين» وراحت تهدىء من ثائرتهما ، وظلت بهما حتى جعلت كلا منهما يقبل الآخر . وعندئذ قالت ضاحكة :

ـ اتريان ؟ .. أليس هذا أفضل من «المناقرة» والشجار . والآن يجب أن أعود فورا الى المطبخ ، والا فلن يتناول احد عشاءه الليلة

ووقفت على الباب برهة قبل أن تغلقه بسرعة ، وتطوى عن ناظريها جو العلاقة الزوجية ، ومنظر السرير ، والملابس المتناثرة ، وشذى الهليوتروب الذى أحست فى تلك اللحظة أنه سيساعدها على التقريب بين الزوجين .. !

وهناك ـ فى المطبخ ـ أخذت «بولين» تغنى وهى تقلب الحساء على النار ، وتضع البطة فى الفرن ، وكانت فى الواقع تشعر بالسعادة الغامرة وهى تقوم بعملها فى المطبخ ، وتجهز الطعام للجميع ..

وتذكرت الطفل الصغير الذى تركته فى الشرفة ، فاندفعت من المطبخ لتطمئن عليه .. وهناك وجدت « لازار » جالسا بجواره ، فهتفت قائلة :

ـ ما هذا ؟ .. كيف تركت «لويز» بمثل هذه السرعة ؟ .. أرجو الا تكونا قد اختلفتما مرة أخرى .. !

فأومأ « لازار » برأسه وقال :

ـ ان الحياة معها أمست مستحيلة .. ولكن اطمئنى يا «بولين» اننا لم نختلف بعد ان تركتنا ، وسوف تأتى لتشترك معنا فى تناول العشاء .. ولكن ..

وهز كتفيه وأمسك عن الاستطراد ..

ولما عاد بالطفل «بول» الى حيث كان يجلس جده فى مقعده المتحرك بالصالة ، أخذا يدربانه على المشى بين أبيه وجده ، وأخذت ضحكات الطفل الصغير تملأ قلبيهما بالسعادة والرضا . ولما تعب ، تلفت « لازار » حوله وقال كأنما تذكر شيئا :

ـ أين الدكتور « كازينوف» والاب «هورتيير» ؟

فقال الوالد العجوز :

ـ لقد صحب الاب « هورتيير» الدكتور ليريه شجرة البرقوق التى أثمرت فى حديقتنا الخلفية ..

فنهض «لازار» وقال :

ـ ولسوف أمضى لاستدعائهما ..

وما كاد يتقدم خطوة حتى رأى «هورتيير» مقبلا فى فزع وهو يهتف :

ـ « فيرونيكا » .. « فيرونيكا » .. لقد عثرنا عليها .. يا للمسكينة ..

فقال « لازار » بجزع :

ـ أين .. ؟

ـ فى الحديقة الخلفية ..

ـ وماذا ألم بها .. ؟!

ـ وجدناها معلقة من عنقها فى شجرة ..

وندت عن الجميع صيحة فزع ورعب ، وامتقعت الوجوه وكأنما أحس كل منهم بأن طيف الموت يمر بالصالة ..

وتمتمت «بولين» قائلة ، وهى تحبس دموعها بجهد :

ـ ولكن لماذا ؟! .. لم يكن هناك أى سبب يدفعها الى الانتحار .. لقد بدأت هى فى اعداد الطعام قبل أن تختفى ، ثم أخذت أتممه بعدها .. يا الهى أرجو الا أكون أنا السبب عندما ذكرت لها الفرق بين ثمن البطتين !

وأقبل الدكتور « كازينوف » الذى كان قد انفق الربع ساعة الاخير فى محاولة اسعافها بمساعدة سائق مركبته العجوز «مارتن» .. ولما رأى نظرات التساؤل ، قال :

ـ اننى لا أعرف لماذا فعلت هذا .. والواقع ان الانسان ليشعر بأكبر الحيرة أمام تصرفات بعض الناس ..

وقالت «بولين» وهى تخفى وجهها بين يديها :

ـ ولكن .. كيف ؟ .. كيف ؟ .

ـ شنقت نفسها بأربطة ميدعة المطبخ .. والواضح أنها فعلت هذا فى لحظة يأس عابرة ..

وخيم الصمت الثقيل على الجميع .. وفجأة قال العجوز « شانتو » بصوت الثائر المتمرد الذى ساءه أن يحرم فى اللحظة الاخيرة من وجبة العشاء الشهى :

ـ اننى لا أدرى كيف تبلغ الحماقة ببعض الناس حد الرغبة فى التخلص من هذه الحياة الحلوة !

« تمت »



روايات الهلال

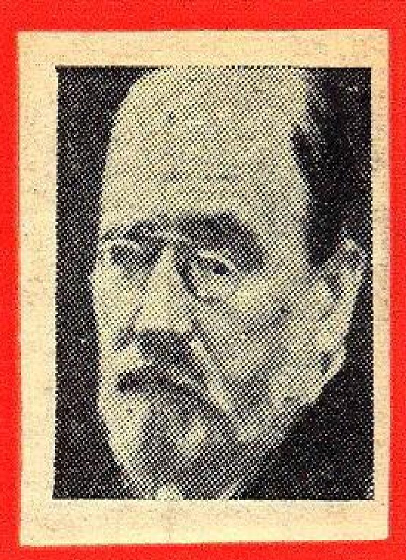
مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

هذه الرواية

يعالج « اميل زولا » فى هذه الرواية الانسانية الرائعة Zest for life.. موضوعا من أهم الموضوعات وأكثرها تشويقا للنفس البشرية .. انه موضوع السعادة الانسانية والرغبة القوية فى الحياة بكل ما فيها من آلام وآمال ، وحرمان واستمتاع ، وحب ونفور

ان « بولين » بطلة الرواية ، تذهب ـ وهى طفلة يتيمة تملك ثروة ضخمة ـ للاقامة مع أسرة عمها العجوز التى أخنى عليها الدهر . وقد أشاعت الفتاة جوا من المرح والرخاء فى محيط الاسرة ، ولكن الامور تتطور والرغبات تتصارع ، وتطل نوازع الطمع فى ثروة الفتاة اليتيمة من نفوس بعض أفراد الاسرة .. وتتوالى أحداث الرواية ـ المنتزعة من صميم الحياة ـ فى صور مثيرة رائعة ..





المؤلف

* يعد « زولا » امام المدرسة الطبيعية فى الآداب ، وامام المدافعين عن العدالة

* يعتبر « زولا » من اشهر الروائيين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر

* تمتاز قصصه بدقة التحليل ، وحبكة الموضوع ووصف البيئة الاجتماعية

* من درره القصصية العالمية قصة « نانا » التى ترجمناها فى روايات الهلال باسم « غانية باريس » عام ١٩٥٥ وقصة « تريزا » التى ترجمناها عام ١٩٦١